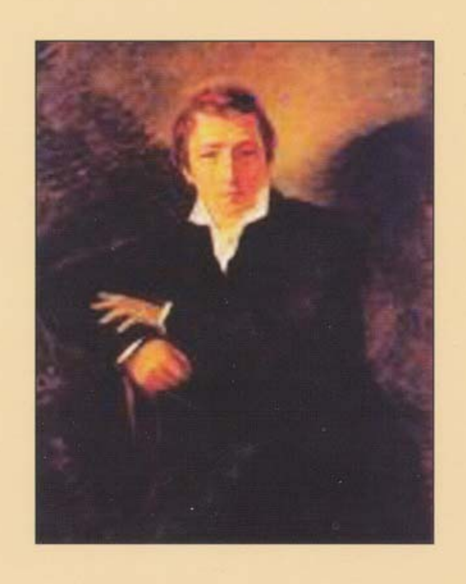


هاينريش هاينه

المنصور

مسرحية أندلسية



نقلها عن الألمانية وقدم لها

منير الفندري

هاينريش هاينه

المنصور

مسرحية أندلسية

نقلها عن الألمانية وقدم لها

منير الفندري

مراجعة

محمد قوبعة

كلمة KALIMA

منشورات الجمل

هاينـريش هاينـه: المنصـور

هاينريش هاينه: المنصور، مسرحية أندلسية

نقلها عن الألمانية وقدم لها: **منير الفندري** ـ مراجعة: **محمد قوبعة**

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

كلمة: ص. ب ٢٣٨٠ أبو ظبي، أ ع م

هاتف ٢٦٣١٤٤٨٥ ٢ ٩٧١+ فاكس ٢٦٣١٤٤٦٢ ٢ ٩٧١+

منشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠٠٩

تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Heinrich Heine: Almansor, *eine Tragödie*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

مقدمة

أنا شاعر ألماني
معروف في بلاد الألمان
إن ذكرت أبرز الأسماء
تردّد اسمي على كل لسان

هكذا قال الشاعر الألماني هاينريش هاينه متباهياً في بعض أشعار شبابه الغزلية ـ ولم يبالغ فيما ادّعى. إنه ولليوم يعدّ بلا منازع من أبرز الشعراء الألمان ومن أشهرهم. بدأ نجمه يسطع في العشرينات من القرن التاسع عشر بقصائد عاطفية لاح فيها تأثير النزعة الرّومنطيقية السّائدة آنذاك، ولكنها اتسمت في ذات الحين بنبرة ذاتية محدثة، جعلتها تتجاوز الأسلوب الرّومنطيقي المألوف وتكرّس الطابع الشعري الأصيل الذي تميّز به شعر هاينه وامتاز. وقد جمعت هذه الأشعار البكر في ديوان صدر سنة ١٨٢٦ بعنوان Buch der Lieder أي «كتاب الأغاني»، ظلّ أشهر أعمال شاعرنا على الإطلاق وأكثرها رواجاً، في حيّز الفضاء

اللغوي الألماني وخارجه على السّواء عبر الترجمة إلى عديد اللغات.

ولد هاينريش هاينه في موفى سنة ١٧٩٧ بمدينة دوسلدورف Düsseldorf في عائلة يهودية متوسّطة الحال. وكانت البلاد الألمانية في تلك الفترة الفاصلة بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تعيش صدى أحداث الثورة الفرنسية ومضاعفاتها من صراعات وحروب عمّت أوروبا. وقد سقطت منطقة «بلاد الراين» التي تقع فيها دوسلدورف في أيدي الفرنسيين بزعامة نابوليون بونبارت وصارت، لغاية انهزامه في موقعة لايبزيغ في أكتوبر ١٨١٣ وانسحابه من ألمانيا، خاضعة لحكمه، تسير بمقتضى القوانين الفرنسية حديثة العهد، التي منحت المواطن حقوقاً وحرّيات ما كان يتمتع بها. وكان من شأن هذه القوانين أيضاً أن حسّنت من أوضاع الأهالي اليهود وعتقتهم من قيود تعسّفية كانت مفروضة عليهم من قديم، تحدّ من حرّية عيشهم وتفرض عليهم واجبات قسريّة. فلا غرابة أن كان هذا من بين الأسباب التي جعلت هاينه يكنّ الإعجاب والتقدير لنابوليون، ابن الثورة الفرنسية، ويخصّه بصفحات غزيرة من نثره الدافق الجميل، مفعمة بالمدح والتنويه، في حين ما انفكّ بنو قومه من الألمان المعاصرين لا يرون على الإجمال في القائد الفرنسي سوى المغتصب الكريه والعدوّ اللدود. بيد أن السّبب الأهمّ في انحياز هاينه لنابوليون، بوصفه رمزاً حيّاً فعّالاً لعصر جديد، تشبّعه مذ كان تلميذاً بمبادئ الثورة الفرنسية وأفكار عصر التنوير

التحرّرية والتقدّمية، الداعية إلى التسامح بين العقائد والمساواة بين البشر، والمنادية بكرامة الإنسان وحرّية المواطن. وتشبّث هاينه بهذه المبادئ والتعاليم وتحمّس لها وناضل من أجلها فغدت من الرّكائز الثابتة التي تكرّس عليها مشربه في الوجود وتأسّست عليها نزعته الفكرية.

وشاءت ظروف عائلية لهاينه، لما بلغ طور الشباب، أن يقتفي أثر أبيه ويمارس التجارة فبعث إلى مدينة هامبورغ لممارسة هذه المهنة وحذقها في كفالة عمّ له، أفلح في هذا الميدان وفي المعاملات المصرفيّة وغدا من كبار الأثرياء. إلا أن الشاب لم يبد براعة أو رغبة فائقة فيما وجّه إليه بل انساق بمزيد الشغف في تأليف القصائد وصياغة الأشعار. وانتهى الأمر بعمّه أن استجاب في النهاية لرغبته في الدّراسة الجامعيّة ودعمه في ذلك مادّياً. وفي خريف ١٨١٩ باشر صاحبنا دراسة الحقوق بجامعة بون أولاً ثم بغوتغن Göttingen، ثم تحوّل إلى العاصمة البروسيّة برلين ومنها عاد ثانية إلى غوتغن، حيث تخرّج سنة ١٨٢٥ مؤهّلاً لمهنة كالمحاماة على سبيل المثال.

ومن أبرز تفاصيل سيرته في فترة شبابه شغفه بإحدى بنات عمّه بهامبورغ ولوعته لامتناعها عن حبّه، ربّما ازدراء بوضعه المادّي، مما زاده ألما. وقد ألحّ مترجموه ومفسّرو أشعاره على أثر هذا الغرام غير المتبادل في نفس هاينه وما أسفر عنه من خيبة عاطفية انعكس صداها في شعره في بداياته، بما في ذلك مسرحيّة «المنصور».

ومما أثر فيه في هذه المرحلة من حياته أيضاً وبدون شكّ انتماؤه العرقيّ إلى الأقلية اليهودية ومعاناته النفسية من وضعه هذا في بعض الفترات، رغم فتور شعوره الدّيني وترفعه عن الأديان عامّة وضعف ارتباطه بعقيدة بني قومه وتقاليدهم وتحرّره من التقيّد الوثيق بهويتهم. إلا أن تلك الفترة الموالية للاحتلال الفرنسيّ و«حروب التحرير» (من هيمنة نابوليون) أفرزت في ألمانيا، على هامش الاستفاقة القومية التي انتابت الشعب الألماني آنذاك وتأجّج الشعور الدّيني المسيحيّ، بعض التشدّد في الموقف السّلبي حيال اليهود، تجسّم في تظاهرات عدائية وحملات علنية، طرأت أخطرها سنة ١٨١٩، تألم منها هاينه واستاء كثيراً فتحمّس لشأن بني قومه وزاد اهتماماً بقضاياهم وإرثهم الثقافي، كما أنه انخرط لفترة (وهو في برلين) في جمعية تطوّعية اعتنت بدعم الثقافة والعلوم بين اليهود (مما نتج عن ذلك رواية «حبر باخاراخ» Der Rabbi von Bacharach التي لم تختم كتابتها. وهي تتمحور حول شخصية العلامة اليهودي اسحاق أبربنال الذي نشأ في الأندلس وهاجر بعد سقوط غرناطة إلى ألمانيا حيث اعتنى بمصير بني قومه). ولا غرو أن ذهب بعضهم إلى تأويل مسرحية «المنصور»، التي تعود نشأتها إلى تلك الفترة بالذات، على أنها ناجمة بالأساس عن هذه الأزمة التي عاشها هاينه وأثارت ازدراءه من التعصّب الدّيني والعنصريّ، فكانت من ردود فعله للسّيطرة على ما انتابه من انفعال واستياء. وسنرى أن هذا التأويل، وإن صحّ إلى حدّ ما، فإنه لا يخلو من التحيّز ولا يكفي لتفسير

الإعجاب البالغ بل الانبهار العميق الذي أبداه الشاعر في هذه العمل حيال الحضارة الأندلسية وحسرته الصادقة على أفولها، وتعاطفه الملموس مع أبطالها المسلمين في نكبتهم وما انجرّ عنها.

ومن سلبيات وضع اليهود الألمان آنذاك منعهم أو استثناءهم من تعاطي العديد من الوظائف والمهن، ممّا حدا بهاينه، إبّان اختتام دراسة الحقوق، أن خضع (سنة ١٨٢٥) للتعميد على يدي قسّ من الكنيسة البروتستنتية، باعتبار أن ذلك له ولأمثاله بمثابة «تذكرة دخول إلى المجتمع الأوروبي»، كما ورد على لسانه تهكما. ولم يفده ذلك كثيراً إذ أنه لم يحرز على وظيفة قارة كما أمل. وزاد تضايقه بألمانيا لما كان يسودها من كبت حرّيات ومناخ رجعيّ خانق؛ وأدّى به الحال أن أقرّ العزم في النهاية على الهجرة إلى فرنسا فاستقرّ في عاصمتها باريس منذ منتصف ماي ١٨٣١ إلى أن مات ودفن بها في فيفري ١٨٥٦.

هذا وقد ذاع صيته بألمانيا قبل ارتحاله وأضحى هاينريش هاينه من أشهر الشعراء بها وأبرزهم، لا سيما منذ صدور ديوانه «كتاب الأغاني» كما أشرنا. كما أنه أثبت عبقريته وقدراته الفائقة في كتابة النثر الجيّد بأسلوب سلس، متميّز أصيل، يجمع بين خطاب المحادثة الحميمة والملاحظة الدقيقة والآراء العميقة والتندّر الظريف والسّخرية الفتاكة والنقد اللاذع. وقد اكتنف هذا النثر الذي صدر أهمّه فيما بين ١٨٢٦ و١٨٣١ في أربعة أجزاء متتالية بعنوان Reisebilder (يجوز تعريبها بـ«لوحات من وحي

السفر» إذ أنّ المقالات التي يتألف منها هذا العمل في أجزائه الأربعة ترتكز على رحلات وجولات قام بها هاينه خلال الفترة الزمنية المذكورة في ربوع ألمانيا وخارجها، ولاسيما إيطاليا وإنكلترا) بوادر من موقف صاحبنا التقدّمي من قضايا عصره على الصّعيد الألمانيّ والأوروبيّ والإنسانيّ عامّة. ومن قوله في بعض المقاطع مثلاً، انطلاقاً من الرّأي أن لكلّ زمان «مسألته العظمى» وفرضه الحتميّ على الجيل المعاصر:

«وما هي إذن المسألة العظمى في زماننا نحن؟ إنها التحرّر. ليس فقط تحرّر الأيرلنديين وأهل اليونان ويهود فرانكفورت وزنوج الهند الغربية وغيرهم من الشعوب المكبوتة المقهورة الأخرى، بل هو تحرّر العالم قاطبة، وبالأخصّ أوروبا، التي بلغت بعد طور الرّشد، وهاهي تفكّ عنها القيود الحديدية التي سوّرها بها أصحاب الامتيازات الأرستقراطيون (. . .) إن لكلّ زمان مسألته وبحلها تخطو البشرية خطوات إلى الأمام. قد يجوز أن كانت اللامساواة السّابقة، التي كرّسها النظام الإقطاعي في أوروبا، ضرورية أو شرطاً ضرورياً لتطوّر الحضارة؛ أمّا اليوم فهي تعرقل الحضارة وتثير سخط القلوب المتحضّرة. لقد عكف الفرنسيون (. . .) على فرض المساواة ببتر رؤوس من تشبّث بحبّ التعالي بتراً رقيقاً، فكانت الثورة إشارة لحرب تحرير البشرية».

ويردف قائلاً، بأسلوبه المتميّز الذي يمتزج فيه الجدّ بالهزل:

«فدعنا نمجّد الفرنسيّين! إنّ لهم الفضل في اثنين من أهمّ حاجيات المجتمع البشريّ، في الأكل الشهيّ وفي المساواة

المدنية. . . لا تتبسّم أيّها القارئ المستقبلي. كلّ زمان يعتقد أن كفاحه أهمّ الكفاحات وأجدرها، وهنا بالذات تكمن عقيدة الزمان، وفيها يعيش ويموت، ونحن بالمثل نعيش ونموت في دين الحرّية هذا، الذي يستحق أن نسميّه دينا، أكثر مما يستحقّ ذلك الشبح الرّوحاني، البائد الخاوي، الذي مازلنا نطلق عليه هذا الاسم».

هذا وقد تدعّم موقف هاينه التقدمي الليبرالي بوجوده بباريس مباشرة بعيد ثورة جويلية ١٨٣٠ واندماجه في تيارات فكريّة ثقافيّة جديدة ونزعات سياسيّة واجتماعية ثورية أو ليبرالية، واحتكاكه بأصحابها واختلاطه بحلقاتها. وحرص على التعريف بها في ألمانيا بهدف دعم الوعي السّياسي والاجتماعي هناك وتحريكه، وذلك بواسطة الكتب التي كان ناشره (Hoffmann & Campe) بهامبورغ يتولى طبعها وتوزيعها، بعد أن تمرّ على أجهزة الرّقابة وربما تحذف منها أشياء لا تستسيغها السلط الحاكمة، أو عبر مقالات صحفيّة كانت تظهر باسترسال في صحيفة أوغسبورغ (Augsburger Allgemeine Zeitung) الذائعة الصّيت آنذاك.

ولكنه مع هذا الالتزام كله ظلّ بالأساس شاعراً نابغاً رقيقاً واظب على صوغ الأبيات ونظم القصائد. وصدرت له دواوين متعدّدة كان من آخرها، وهو طريح الفراش لمرض عضال أشله عضوياً وأعاقه منذ أواخر الأربعينيات، ديوان Romanzero الذي ضمّ مجموعة من القصائد الطوال، تمجّد إحداها في ٢٢٤ رباعية أبا الحسن يهوذا حالفي وغيره من كبار شعراء الأندلس اليهود،

لاسيما سليمان بن يحيى بن جبيرول (مات سنة ١٠٥٨) الذي يحكى عنه أن جاراً له مسلماً يصنع الشعر اغتاله بدافع الغيرة وردمه فنمت فوق قبره شجرة تين عجيبة الأطوار افتضحت بفضلها الجريمة واقتصّ الأمير المسلم للشاعر اليهودي وأمر بشنق الجاني. وبسرده هذا الخبر نلفي هاينه يعود في شيخوخته لينوّه بالتسامح الديني الذي تميّز به نظام الحكم الإسلاميّ في الأندلس، بعد أن أطنب في الإشادة به في عمل شبابه «المنصور». كما أورد في نفس القصيدة ذكر الشاعر والأديب موسى بن عزرا، وليد غرناطة (حوالي سنة ١٠٥٥)، وصاحب كتاب «المحاضرة والمكاتبة»، وقارنه في فنّ المقامات بالحريري. وفي قصيدة طويلة أخرى من الدّيوان الشيّق المذكور أبحر هاينه نظما في خبر الشاعر الفارسي أبي القاسم المنصور ابن حسن الفردوسي، صاحب ملحمة «شاه نامه» الرائعة، وخيبته مع السّلطان محمود الغزنوي الذي وعد الشاعر بقطعة ذهب على كلّ مثنوي وأعطاه الفضة في نهاية الأمر وندم بعد فوات الأوان. كما تضمّن نفس الديوان قصيدة Der Mohrenkönig (والأجدر أن نترجم هذا العنوان بـ (الملك الأندلسي)، يصوّر فيها الشاعر الألماني في شيخوخته مأساة الملك الناصري أبي عبد الله محمد، آخر ملوك غرناطة المسلمين، في لحظة فراقه أرض ملكه مهزوماً كسيراً، وكيف أنه توقف متحسّراً باكياً على ربوة ليلقي نظرة أخيرة على ما خسر وأضاع، فتنهره أمّه بقولها: «ويحك تبكي كامرأة ما عجزت عن الذود عنه كرجل».

بيد أن الشاعر المقعد العجوز لا يدع كلمة الختام لعائشة الحرّة ولعذل الملك المغلوب عبر الأجيال، بل ينصفه ويتعاطف معه معتبراً إيّاه (مثله) ضحيّة من ضحايا «القدر الماحق القهّار» الذي لا يقوى عليه أشجع الشجعان. ويستدلّ هاينه بالرّواية الشائعة (لاسيما منذ صدور كتاب الأمريكي واشنطن إرفنغ حول غرناطة وسقوطها، ١٨٢٩. وقد صدر الكتاب، في ترجمة لهاني يحيى نصري بعنوان «أخبار سقوط غرناطة» ببيروت عام ٢٠٠٠) القائلة بأنّ الرّبوة التي أطلق عليها أبو عبد الله محمد زفرات الحسرة والأسى رسخت في الأذهان وباتت تعرف باسم «زفرة الأندلسيّ المسلم الأخيرة»، استدلّ بها ليبرز أن خاتم ملوك غرناطة والأندلس عامّة قد خلد في ذاكرة البشر بوصفه ضحيّة جديرة بالشفقة والعطف، لا باعتباره مخفقاً مهزوماً؛ وبالأبيات التالية ينتهي القصيد:

ولن يتبدّد صدى صيته

أبداً، ما لم ينصدع،

في عويل، آخر وتر

من آخر قيثارة أندلسيّة.

ولا ريب من أنّ هاينه تذكّر وهو يستلهم هذا القصيد المثير مسرحيّة «المنصور» Almansor التي ألفها وهو شابّ في الثانية والعشرين من عمره والتي حملته على الغوص في تاريخ المسلمين بالأندلس واكتشاف الحضارة الرّاقية التي طوّروها هناك والانبهار

بها إلى حدّ بعيد فانعكس فيها انبهار الشاعر الشاب انعكاساً ساطعاً جليّاً.

تقوم هذه المسرحية على مأساة شاب وفتاة من أهل غرناطة هما المنصور ابن عبد الله وسليمة ابنة علي، عرفا السّعادة والوئام في عهد الصّبا (وفي ظلّ الحكم الإسلامي)، إلى أن فرّقت بينهما النكبة التي نزلت على وطنهما الجميل بوقوعه في أيدي ملكي إسبانيا المسيحييّن، فردناند صاحب أرغونيا وإزابلا صاحبة قشتيليا، في مطلع ١٤٩٢، وإرغام الأهالي المسلمين، رغم اتفاق ووعود مخالفة، على التنصّر والاندماج في المجتمع الإسباني المسيحي وثقافته أو مغادرة الأندلس طرداً. إذ ذاك اقتفى الشاب أثر ذويه إلى المهجر، إلى المغرب ومنها إلى اليمن، «أرض الأجداد»؛ في حين بقيت الفتاة، بعد أن استمالتها أمة مسيحيّة إلى عقيدتها ونظراً لأنّ وليها علي لم يطق مفارقة موطنه الحبيب، فاستجابا للتعميد وانصاعا لما اعتقدا أن يكون فعلاً «دين المحبّة». ثم ينكشف سرّ أمور عائلية حملت الأبوين على تبادل الطفلين في صغرهما وتبنيهما كلّ منهما ولد الآخر، لتربيتهما بما يليق بكليهما إلى أن يحين الأوان لتزويج أحدهما الآخر، مما زاد المأساة حدّة وتعقيداً.

ويستهلّ الحدث الدرامي بعودة المنصور إلى غرناطة، قادما من بلاد الإسلام، متنكرّاً في زيّ مسيحي، يدفعه الحنين إلى مسقط رأسه المفقود والشوق إلى حبيبة الصّبا سليمة، فيلفيها على أهبة الزواج من وغد مسيحيّ محتال استهوته ثروة «أبيها»

وتواطأ مع رجل دين حث الفتاة على الارتباط به. ويلتقي المنصور بحسن، الذي كان في سالف الأيام، في الزمن السّعيد، من خدم «أبيه» الأوفياء، وهاهو على رأس طائفة من المسلمين الذين بقوا بعد النكبة على عقيدتهم يقاومون الأسبان النصارى وينتقمون منهم. وبمعونة الحسن وجماعته يسطو المنصور على حفل الزفاف ويتمكّن من اختطاف العروس والفرار بها. ويضيق الحصار على المنصور، وقد أصيب بجرح واختلت مداركه العقلية، فيلقي بنفسه من أعلى صخرة، جارّا معه حبيبته، متوهّما أنه كالمجنون وليلاه ينتقل وإيّاها إلى عالم أفضل ينعدم فيه شرّ البشر وإغواء إبليس.

انكبّ هاينه على كتابة «المنصور» في دفعة أولى فيما بين أوت ١٨٢٠ وأفريل من السنة الموالية وظلّ عاكفاً عليها منشغلاً بها إلى صدورها كاملة ببرلين ضمن كتاب في أفريل ١٨٢٣. وكان لما باشر العمل طالباً في الحقوق بجامعة بون، يحدوه في ذات الحين ميل عارم إلى الأدب وولع جامح بكتابة الشعر. فكان من أهمّ من واظب على دروسهم من الأساتذة وأحبهم إليه أستاذ الآداب أوغوست فيلهالم شليغل (August Wilhelm Schlegel ١٧٦٧ ـ ١٨٤٥) المعروف في تاريخ الأدب الألماني بوصفه أحد باعثي المدرسة الرومنطيقية الألمانية وأبرز منظريها (والجدير بالذكر أن «التلميذ» لم يعف أستاذه من الهجاء في وقت لاحق لما تعرّض في كتابه الجدلي Die Romantische Schule للمدرسة الرومنطيقية الألمانية بالنقد والقدح، معيباً عليها نزعتها الرجعية

وحنينها الشاذ إلى الماضي البائد، لاسيما القرون الوسطى، أوج مجد الكنيسة الكاثوليكية والإقطاعية الأوروبية).

وبعد أن تأكّدت لهاينه موهبته في قرض الشعر رام، كما ذكرنا، الخوض في التأليف المسرحيّ فخطر له موضوع «المنصور» وانساق فيه. ويطول التطرّق الافتراضي فيما يتعلق بدواعي اختياره الموضوع هذا بالذات، علما وأن المحور الأندلسي أو الموريسكي كان شائعا يومئذ، كما لمّحنا، وملائما للذوق الرّومنطيقي السّائد يومئذ. إلا أن هاينه لم يكتف، على غرار غيره من الشعراء على العموم، بقناع أو إطار غرائبي سطحيّ، ينزل فيه لبّ عمله ويحبك فيه الحدث الدرامي، دون شديد الحرص على الجانب التاريخيّ والاعتناء بحقائقه وبمصداقية أشخاصه الثقافية. بل إنه وعلى عكس ذلك بذل في هذا الصّدد، أي التمكن الوثيق من هذا الجانب التاريخي وإضفاء المصداقية الثقافية على أشخاصه، جهداً جباراً، يلوح من خلال العمل بأسره، ويتجاوز بكثير ما كان يتطلبه الأمر لو أنه اقتصر على مجرّد مسحة غرائبية يكسو بها فنياً ما أراد إبلاغه، أو قناعا لغاية التمويه، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين (ولاسيما منهم من التزم ترجيح كفة العنصر اليهودي لدى هاينه والتشديد عليه). وصدق الشاعر حين صرّح في رسالة إلى بعض أصدقائه (بتاريخ ٤ فيفري ١٨٢١): «لقد بذلت قصارى ما في طاقتي من جهد في تأليف هذه المسرحية ولم أدخر في سبيلها شيئاً من دم قلبي وعرق جبيني».

وتأكد ذلك وتدعمّ خصوصاً بالرجوع إلى سجلات مكتبة جامعة بون ثم غوتغن، حيث برهن البحث على أن هاينه استعار زمن انكبابه على «المنصور» عدداً لا بأس به من الكتب والمراجع ذات العلاقة بهذه المسرحية وموضوعها فكانت له مصادر متنوّعة ثريّة لاستيعاب مادتها واستشراف خلفيتها التاريخيّة (لقد تناولنا مسرحية «المنصور» بالدراسة والتحليل من خلال مصادرها ومراجعها في عمل معمّق حول علاقة هاينه بالشرق الاسلامي، قدّم رسالة دكتوراه بجامعة دوسلدورف وصدر كتاباً بهامبورغ سنة ١٩٨٠ وهاهي دار نشر الجمل تستعد لنشره معرّباً). ومن هذه الكتب ما ارتبط بتاريخ إسبانيا، بما في ذلك العصور العربية الإسلامية (علما وأن البحث التاريخي في هذا الصّدد مازال آنذاك أي في غضون ١٨٢٠ لم يتطور بعد في أوروبا، كما سيحصل ذلك في وقت لاحق، خصوصاً بفضل أعمال المستشرق الهولندي راينهارد دوزي)، وتمحورت أخرى حول محاكم التفتيش الكنائسية الرّهيبة التي عاثت في مسلمي إسبانيا ويهودها، بمحارقها وأدوات تعذيبها وتعصّب رجالها، فساداً يشهد التاريخ على فظاعته. ومن بين المصادر ترجمة ألمانية لكتاب المؤرّخ المغربي أبي الحسن ابن أبي زرع الفاسي «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» (القرن ١٤ م). وقد أثراه المترجم الألماني (النمساوي الأصل، فرانتس فون دومباي، صدر في ١٧٩٤) بهوامش وتعاليق غزيرة تشرح باعتناء واعتدال تفاصيل عديدة عن فرائض المسلمين

وطقوسهم وعاداتهم، استفاد منها صاحب «المنصور» كثيراً لإضفاء الطابع الإسلامي على شخصيات المسرحيّة (من الثابت أن هاينه اطلع على فحوى القرآن ومعانيه، عبر ترجمة بويزن الألمانية، إلا أن ذلك قد حصل بعد أن فرغ من «المنصور»؛ انظر رسالتيه بتاريخ ٩ و٢١ جانفي ١٨٢٤). كما أنّ المؤلف اعتنى بالجانب العربي للمسرحية وشخصياتها وتفانى إلى حدّ بعيد في جعلهم يفكّرون ويتخاطبون ويتصرّفون ـ حسب اجتهاده بطبيعة الحال ـ طبقاً لهويتهم العربية وثقافتهم الشرقية، فالتجأ إلى مصادر مغايرة، لاسيما استشراقية المأتى، أهمّها عمل يتعلق بالشعر العربيّ القديم وبالمعلقات السّبع على وجه التدقيق، وآخر برواية المجنون وليلى والحبّ العذريّ.

بعد أن أثار المستشرق الإنكليزي وليام دجونس الاهتمام بالقصائد العربية القديمة المعروفة بالمعلقات بترجمته الصادرة سنة ١٧٨٣، قام المستشرق الألماني أنطون تيودور هارتمان بنقلها كاملة إلى الألمانية ونشرها سنة ١٨٠٢ فكانت مصدراً هاماً للشاعر غوته في تفاعله الإبداعي مع الأدب الشرقي والشعر العربي، كما بيّنت كاترينا مومزن في بحوثها القيّمة في هذا الصّدد. وثبت لنا أنّ هاينه كذلك اطلع على ترجمة هارتمان واعتمدها في تأليف «المنصور» لاستشفاف بعض خصائص الشخصيّة العربية. فقد أهدى صديقاً له، وبتاريخ ١٣ سبتمبر ١٨٢٠، نظماً شعرياً بأسلوب يشذ عن أسلوبه المعتاد وذيّله بلفظة «عربي»، مما حيّر الباحثين في شأنه. واتضح لنا (كما بيّنا

في بحث سالف صدر في Heine-Jahrbuch لسنة ١٩٧٧) أن هاينه استمدّ المقطع ذاته من كتاب هارتمان وشذبه بعض الشيء، إذ أورده هذا الأخير ضمن مقدّمته الطويلة الضافية مثالاً على بعض طباع العرب القدامى وأغراض شعرهم، بعد أن نهله بدوره من «ديوان الحماسة» لأبي تمام. أما الأصل فهو قصيد لسلم بن ربيعة، مطلعه:

«إن شواء ونشوة ❊ وخبب البازل الأمون»

وهكذا فقد تعرّف هاينه في بداية إنتاجه الأدبي على المعلقات بوصفها نماذج راقية من الشعر العربي القديم، وقد عاد لينوّه بها في بعض أعماله المتأخرة كونها «حظيت في بعض المنافسات الشعرية بالفوز فخطت بالذهب على الحرير تكريما وعلقت على جدار الكعبة المقدسة بمكة». واستوعب بفضل ترجمة هارتمان وشروحه المستفيضة خصائص القصيدة العربية القديمة من حيث الشكل والمضمون، فلا غرو أن نلفي افتتاحية «المنصور» ـ حيث نشاهد البطل العربي في مناجاة أليمة بين أرجاء منزل متداع مهجور ألفه فيما مضى، دفعه إليه شوق عارم وحنين ـ وكأنها تحاكي عادة «الوقوف على الأطلال». ويلوح تأثير المعلقات، وما قرأ هاينه واستوعب لدى هارتمان وغيره حول الشعر العربي القديم وخصائص أهله وبيئتهم، على مستوى الخطاب الحواري في «المنصور». إذ نلفيه يزخر بالاستعارات ويطفح بالتشابيه وغير ذلك من الصّور المجازية «الاستشراقية» التي توحي بأجواء روائع طرفة بن العبد وعنترة وامرئ القيس وغيرهم، والتي من شأنها،

من منظور المؤلف، أن تدعم هويّة شخصياته «الشرقية»، العربيّة الأصل. ولعله انجرّ في هذا الاندفاع البلاغي كثيراً وجازف، ناهيك أنه ندم على ذلك فيما يبدو، إذ نجده في بعض رسائله (بتاريخ ١٥ أفريل ١٨٢٣) ساخطاً على «اللهجة الملعونة التي يتحاور بها المنصور وأمثاله الشرقيون»، معتبراً إيّاها، في نقد ذاتي، من الأسباب التي أدّت إلى إخفاق المسرحية وجعلها لا تحظى بما تمنىّ لها من النجاح والقبول. إلا أنه كان على الأرجح، أثناء انكبابه على هذه المسرحية، في نشوة شاعرية وتكيف عاطفي تحت تأثير عالم بطله الرومنطيقي الشيّق ومصيره الأندلسي المأسوي، من خلال المصادر المعتمدة والمستوعبة بشغف وحماس كما استنتجنا.

ولا بدّ في هذا السّياق من ذكر رسالة طريفة مؤرخة في ١٤ فيفري ١٨٢٢، كتبها هاينه إلى بعض الأصدقاء في ساعة ضجر وقنوط، صبّ فيها جام سخطه على «كلّ ما هو ألماني» ثمّ ترك الألمانية جانباً ليسترسل باللغة الفرنسية قائلاً:

«حالما تتحسن حالتي الصّحية سأغادر ألمانيا لأرتحل إلى الجزيرة العربية فأعيش فيها عيش البدو الرّحل وسأجدني إنساناً في أتمّ معني الكلمة؛ وسوف أعاشر جمالاً ليست هي بطلبة الجامعات وسأنظم أبياتاً شعرية في جمال المعلقات وسأجلس أخيراً على الصّخرة المقدّسة التي جلس عليها المجنون ليناجي ليلى».

وكأننا هنا بالشاعر يقتدي بمثال بطله ويتقمّص شخصيته إذ

نلفي المنصور في بعض مواطن المسرحية يبوح بحبه العارم لسليمة ويردف قائلاً: «وحالما أمتع بصري بقامتها الهيفاء (...) أشدّ رحالي وأعود إلى البيداء العربية، فأجلس على تلك الصّخرة الناتئة، التي جلس عليها المجنون وناجى ليلى».

وبالفعل ألمّ هاينه وهو منكبّ على مسرحيّة «المنصور» بخبر المجنون مع عشيقته ليلى من خلال رواية الشاعر الفارسي نورالدين عبد الرحمان الجامي وعبر ترجمة ألمانية أنجزها أنطون تيودور هارتمان أيضاً فجاءت المسرحية زاخرة بالإشارات إلى هذه الرواية والإحالات عليها، كما اقتدى المنصور في حبّه لسليمة بمثال المجنون في عشقه «العذري» لليلى، ومات وفي يقينه أنه بالمثل من شهداء العشق الخالص. (ولا بدّ هنا من الإشارة إلى قصيد كتبه هاينه في غضون ١٨٤٦ بعنوان «العاشق العذري» (Der Asra) يجيب فيه عاشق في خدمة أميرة «رائعة الجمال» عمّن يكون بقوله: «محمد اسمي / واليمن مسقط رأسي / وقبيلتي أولائك العذريون / الذين يموتون إن عشقوا». انظر مقال لنا حول هاينه والشرق في العدد ٥١ من مجلة «فكر وفن»).

لم تكن مسرحية «المنصور» العمل الأدبي الألماني الوحيد الذي استند في ذلك الوقت، أي الثلث الأول من القرن التاسع عشر، إلى تلك الخلفية الأندلسية، أو الموريسكية كما كان يقال، واستلهم موضوعه من تاريخ غرناطة وكارثة سقوطها في أواخر القرن الخامس عشر. فقد استساغت النزعة الرومنطيقية

السّائدة يومئذ المحور «الموريسكي» لما انطوى عليه من جاذبية استغرابية ومغامرات عاطفية وقيم الفروسية وصراعات حضارية وتشويق درامي، بصرف النظر عن نخوة الانتصار المسيحيّ في الصّراع القديم مع الإسلام. وكان من أبرز المصادر المعتمدة في هذا المجال وأحبّها على الصعيد الأوروبي عامة (عبر فرنسا منذ القرن السابع عشر) مؤلف للكاتب الإسباني Gines Perez de Hita يعكس في أسلوب روائي مشوّق ومزيج شيّق من الواقع التاريخي والخيال الشعريّ صورة طريفة خلابة عن حياة غرناطة وأهلها في أواخر عهدها الإسلامي، وهي على وشك السقوط والانهزام، ظهر سنة ١٦٠٤ بعنوان Las Guerras Civiles in Granada (الحرب الأهلية بغرناطة). ولا غرابة في أن نجد هذا الكتاب (في ترجمة فرنسية، باريس ١٨٠٩) من بين ما استعار هاينه من كتب زمن انشغاله بـ«المنصور». هذا وقد كان أ. ف. شليغل، زعيم الحركة الرومنطيقية الألمانية، الذي تعرّفناه أستاذا لهاينه بجامعة بون، من أول من استلهم رواية دي هيتا وفتح الأدب الألماني على المحور الموريسكي، بأن نشر سنة ١٧٩٦ قصة «موريزله، سلطانة غرناطة»، التي تحكي ولع أميرة إسبانية مسيحية بملك أندلسي مسلم وكيف أن ذويها أنقذوها من زلة الانسلاخ عن دينها. (ولا بدّ هنا من الإشارة إلى دور الأديب الألماني الكبير هاردر J.G.Herder الريادي في جلب انتباه بني قومه إلى قصائد الرومنثيرو الإسبانية ذات المواضيع الموريسكية «الغرناطية»، المستمدة في معظمها من كتاب دي هيتا المذكور، بنشرها في

أواخر السبعينات من القرن الثامن عشر ضمن ديوان جمع فيه نماذج من الأغاني «الشعبية» لمختلف الأمم). إلا أن عمل هاينه تميّز عن غيره إلى حدّ بعيد بشديد الإعجاب وعميق الانبهار بالحضارة الأندلسيّة، وبتحسرّ بيّن على أفولها، وتعاطف بالغ مع أصحابها المسلمين وأسى لا لبس فيه على ما بلاهم به الدّهر وما أصابهم به من تعسّف المنتصرين المسيحيّين وتعصّبهم الدّيني. . . فلا غرابة في أن نجد أشخاص المسرحيّة المسيحيّين، لاسيما منهم رجال الدين، يظهرون على عكس المسلمين فيها في مظهر سلبي يبعث على النفور ويتميّزون بسوء السّلوك وضعة الأخلاق. ولم يبالغ المؤلف الشاب حين قدّر في رسالة إلى أحد أصدقائه (بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٢٠) أن المسرحيّة، «حتىّ إن لم تنل الإعجاب، فإنها سوف تثير الانتباه بأقصى ما يكون»، مضيفا: «لقد أودعتها مهجة ذاتي بكلّ ما لديّ من تناقضات وحكمة ومحبة وكراهية وكافة جنوني».

ولا شكّ في أن هذا الانحياز، الشاذ نسبيّا عن المعتاد والمألوف ـ وبصرف النظر عما سجّل من نقائص شكلية ـ ممّا جعل المسرحيّة لا تحظى لدى ظهورها (جزئياً في أعقاب ١٨٢١ وكاملة سنة ١٨٢٣) بقبول جيّد وتثير عند عرضها لأول مرّة ـ وآخرها إلى حدّ الآن ـ (أوت ١٨٢٣) موجة من الغضب والاستياء. فقد كان من المعتاد النظر إلى هزيمة المسلمين بإسبانيا وخروجهم منها حدثا إيجابياً في تاريخ أوروبا ونصراً للمسيحية

في صراعها ضدّ الإسلام. وهاهو شاعر يعكس الآية بصفة فادحة فيتبنىَ وجهة نظر المسلمين ليمجّد الحضارة الأندلسيّة تمجيداً ويرثى فقدانها المأسوي ويكيل اللوم والتأنيب للطرف المسيحيّ الذي تسبّب في انهيارها فعامل المهزومين بقسوة وتعصّب بغيض. ولا يلبث القارئ العربي وهو يباشر هذه المسرحية للشاعر الألمانيّ هاينه أن يستحضر القصائد والأبيات لشعراء الأندلس في مدحهم لوطنهم والتغني بجمال طبيعته وامتياز عمرانه وطيبة العيش فيه، أو في رثائهم له بعد النكبة وحسرتهم على فقدان «جنتهم» وسقوطها في أيادي «أهل الصليب».

ومن الطبيعي أن لم يرق هذا الموقف للكثير ممّن تقبل «المنصور» من معاصري المؤلف. وزاد الطين بلة في نظر العديد منهم أن كان هذا من اليهود، فبدا وكأنه رام عن قصد أن ينتقم من محيطه المسيحيّ. ولربما صحّ هذا إلى حدّ ما، ولئن لم يكن الدافع ـ حسبما نعرف عن مواقف هاينه الفكرية في تلك الفترة الباكرة، لاسيما من خلال رسائله ـ حبّ الانتقام، بقدر ما كان الجدل الفكري والانتقاد «التنويري» للتعصّب الدّيني وقلة التسامح وما ينجرّ عنهما من إساءة بالإنسان. وقد اعترف هاينه بنيّته النقدية الجدليّة حين كتب إلى صاحب دار نشر ببرلين (في ٥ جانفي ١٨٢٣) أنّ موضوع مسرحيته «دينيّ جدلي» ويمتّ بصلة «إلى أوضاع راهنة». لكن مهما كان دافع مؤلف «المنصور» بادئ ذي بدء وأيّما كانت نواياه في المنطلق فإنّ عمله، في نظرنا، لم يلبث أن اكتسب بعداً جديداً لعله لم يكن في الحسبان، وذلك

من جراء اطلاعه المكثف على المصادر التي اعتمدها، كما أشرنا، وبتعمّقه في تاريخ المسلمين في الأندلس، فإذا به يستشفّ جوانب قيّمة ممّا شيّدوه من حضارة نيّرة زاهرة، وما طوّروا من علوم في شتىّ الميادين وما أسّسوا من عمران، ما انفك يثير الإعجاب، وذلك في زمن لم تشهد فيه بقية أوروبا المسيحيّة بعد التقدّم والازدهار. ويكفي أن نستشهد بالقول التالي، الوارد في أهمّ المصادر التاريخية التي استند إليها هاينه، وهو كتاب فاسلر حول الشعوب الإسبانية قديما وحديثا (I.A.Fessler: Die alten und die neuen Spanier... Berlin 1820)، جاء فيه ما مفاده أن «من بين الشعوب التي اتخذت لها من إسبانيا موطناً على التوالي لم يبلغ أيّها ما بلغه العرب من ولع بما هو فاخر متميّز، ولم تشهد إسبانيا قط ما شهدته في عهدهم من ثراء وزخر بقرى ونظم سقي ومنتزهات خلابة رومنطيقية النسق، وبالمدن الرائعة والمعالم المعمارية الفاخرة...».

وينعكس تأثير هذا على هاينه وافتتانه جلياً ويتجسّم بكل الوضوح خصوصاً من خلال مقطع غنائي يؤدّيه «كورس»، يبرز فجأة ودون مبرّر درامي بيّن، ليتغنىّ بجمال إسبانيا وعظمتها زمن حكم المسلمين ويسرد أهمّ مراحل هذا العهد، انطلاقاً من دخول طارق بن زياد منتصراً إلى سقوط غرناطة بعد صمود بطولي، مروراً بقيام الخلافة الأمويّة، فيشيد بما انجر عنها من الإنجازات الحضارية ويتحسرّ على أفولها واندثارها في النهاية ويعيب على المنتصر المسيحيّ نكثه للوعد ومعاملته التعسفيّة المتعصّبة إزاء المسلمين.

ومن الرّاجح أنّ اهتمام الشاعر الألماني الشاب، اليهوديّ الأصل، وغرامه بتاريخ المسلمين في الأندلس زاد نموّا وتدعّم بما استنبط واستنتج في ذات الحين من اشتراك واقتران في المصير بين مسلميّ إسبانيا ويهودها. فمن البديهيّ أن توقفت المصادر التاريخية المعتمدة عند أوضاع الجاليات العبرية في ظلّ الدّول والدويلات المسلمة وما عرفته من ظروف ملائمة، متسمة بالتسامح إلى حدّ بالغ، مهّدت وسنحت لازدهار الآداب والعلوم اليهودية ومكّنت من نشأة ما يعرف بالعصر الذهبيّ للفكر اليهوديّ الذي أشاد به هاينه وتغنىّ به في شعره المتأخّر كما رأينا (وقد زاد اطلاعاً على هذا الفكر وظروف ازدهاره وعلاقته المتينة بالمناخ السّياسي والثقافي، السائد في الأندلس طيلة الحكم الإسلامي على العموم، إبّان انكبابه على روايته المذكورة أعلاه «حبر باخاراخ» سنة ١٨٢٤ وتعمّقه في المصادر والوثائق المعتمدة). كما تعرّضت نفس المصادر لمعاناة اليهود على أيدي النصارى لمّا تغلب هؤلاء على المسلمين واستحوذوا على مقاليد السّلطة، فعرف اليهود ما عرف المسلمون من مصير، وأرغموا بالمثل على اعتناق الدّين المسيحيّ أو مغادرة الأرض الإسبانية مطرودين وتعرّضوا للتنكيل والتشريد. «لقد كانت الأندلس في نظر هاينه»، هكذا علق بعض من كتب في شأن الشاعر ومسرحيته، «المملكة التي كان كلّ واحد يجد فيها الهناء الرّوحاني حسب هواه، وحيث كان بمقدور أي إنسان فيها، مهما كان دينه وعقيدته، أن يهذب فكره وفنونه ويطوّرها إلى أرقى

مستوى؛ إنها كانت المملكة التي بلغت فيها الثقافة اليهودية أيضاً درجة رفيعة من الازدهار، فتسنىّ لشاعر مثل يهوذا حالفي أن يؤلف في كنفها روائعه... كانت الأندلس لهاينه بلد الجمال والفن؛ كانت له البلد المثالي، بلد الحلم الطوباوي».

ولعلنا لا نجازف إن رجّحنا أنّ انحياز مؤلف «المنصور» لمسلمي إسبانيا يتبادر من العنوان واختيار اسم البطل الرئيسي. فلقد تحدثت المصادر التاريخية المشار إليها كذلك عن شخصيات عدّة باسم المنصور، ولا سيما منهم المنصور بن أبي عامر، حاجب الخليفة هشام بن الحكم، الذي أشيد ببطولاته في حروبه مع المسيحيين وانتصاراته الباهرة عليهم في مناسبات عدّة، ونجد صدى لهذه الأخبار الممجّدة في سياق ما اعتمد هاينه من المصادر. من ذلك على سبيل المثال ما ساق فاسلر حول «محمد المنصور» بأنه «قاد في اثنتين وخمسين غزوة جيوشه لمحاربة أسبان الشمال، ولم يسبق لقائد عربي أن بلغ ما بلغه في الزحف شمالاً ولم يسجّل أيهم ما سجّله من الانتصارات». فلا يستبعد إذن أن وقع اختيار الاسم والعنوان عن قصد ومن باب التحدّي، بالاستناد إلى هذه الشخصيّة التاريخيّة المجيدة واتخاذها رمزاً يوحي بأيّام عزة مسلميّ الأندلس وتفوّقهم على خصومهم النصارى.

هذا وقد عاد هاينه بعد سنوات قليلة إلى بطله المأسوي ليصوّر المنصور في قصيدة مثيرة بنفس العنوان وقد ارتدّ واستجاب للتعميد دون قناعة ورضا بل حباً لدونيا كلارا (كما تسمّت سليمة

لما تنصّرت). ونرى المنصور ابن عبد الله وسط مسجد قرطبة الفاخر العظيم وقد رضخ مثله لـ«دين الصّليب»، يخاطبه في تحدّ مذكراً إيّاه مجده وعزته في عهده الإسلاميّ ويعيب عليه استسلامه لمصيره وخنوعه أمام أصحابه الجدد ورضوخه لرموزهم وطقوسهم الغريبة. ويجد الأندلسيّ المرتدّ في تنازل الصّرح الشامخ العتيد ما يخفف من وطأة معاناته، وهو العبد المغلوب الضّعيف، ويهوّن على نفسه المضطربة. وينتهي القصيد بحلم يشاهد فيه المنصور في إغفاءة الجامع الممسوخ يتزعزع من شدّة القهر وينهار بقبته الجبّارة وأعمدته العملاقة الكثيفة على رؤوس أصحابه الدّخلاء وعلى رموز عقيدتهم البديلة. ولا ريب في أنّ ما دعا شاعرنا إلى الرّكون ثانية إلى موضوع المنصور الأندلسي والارتداد المرغم ومضاعفاته يتضح بتزامن هذا القصيد مع اعتناق هاينه المذهب البروتستنتي سنة ١٨٢٥ للأسباب التي لمّحنا إليها.

لقد أشرنا تكراراً إلى أن تراجيديا «المنصور» لم تفز في عصرها بما تمنىّ لها صاحبها من الشهرة والنجاح، وظلت فيما بعد من بين أعمال هاينه العديدة مطمورة مهملة نسبيّاً لا تستقطب إلا ما قلّ من اهتمام القراء واعتناء الباحثين. بيد أن الوضع تغيّر شيئاً فشيئاً منذ سبعينيات القرن المنصرم وأعيد اكتشافها في كنف الاهتمام المتزايد بالجانب الاستشراقي في أدب هاينه، إذ هي تحتلّ منه مكانة متميّزة مرموقة. وعلى هذا الأساس رأينا أن نسهم بهذه الترجمة، والتقديم لها، في رفع النقاب عنها والتعريف بها في المجال الثقافي العربي، رجاء أن نزيد بفضلها

في الكشف عن الشاعر هاينريش هاينه بوصفه رمزاً من رموز الأدب الألماني وأحد أعلام الثقافة الأوروبية في القرن التاسع عشر.

ولئن نحن ركّزنا على مضمون المسرحيّة وأبعادها الفكرية، وسلطنا الأضواء بالأخصّ على جانبها «الاستشراقي» وأهميتها «الأندلسية»، فلا بدّ من الإشارة إلى ما بذل صاحبها من جهد وعناية لجعلها عملاً شعريّاً جديراً بهذا النعت. وسعينا في ترجمتنا قدر المستطاع إلى مراعاة هذا الجانب. فنرجو أن نكون قد وفقنا بما أمكن في الإبقاء على الشكل والنفس الشعريين اللذين أرادهما الشاعر الشاب لمسرحيته لما ألفها بحماسة وشغف في مستهل عطائه الإبداعي.

منير الفندري

تونس، في ديسمبر ٢٠٠٦

المنصور

لا تظنوها من وحي الخيال فحسب،
أنشودة جميلة أقدّمها إليكم بكل لطف.
أنصتوا: إنها قصّة ومسرحية نصفا بنصف،
تتخللها براعم شعرية يانعة ناعمة؛
المضمون رومنطيقي وتشكيلي الصوغ،
والكلّ نابع من العاطفة وصميم الوجدان.
نصارى ومسلمون في صراع والشمال مع الجنوب،
وتحلّ المحبّة في الختام وتعيد السّلام.

داخل قصر أندلسي متداع مقفر. شعاع شمس الغروب يتسلل عبر النوافذ الجانبية. المنصور بمفرده.

المنصور:

إنه البلاط الحبيب، مازال كما عهدته،

والبساط المألوف بديع الحبك زهيّ الزخرف

الذي جالت عليه أقدام الآباء المقدّسة والأجداد !

أما اليوم فإن الدّيدان تنهش زهره الحريري،

كما لو كانت للإسبانيّ حليفاً ونصيراً.

وهذه الأعمدة هي التي عهدتها صلبة وفيّة،

ركائز المرمر العتيدة للبيت الشامخ الأبيّ،

كم لامستها وأسندت إليها ظهري وأنا صبيّ.

حبّذا لو اقتدى بها رجالنا، من «غوملس»[١] و«غنزول»[٢]

---

(١) Gomeles لعل المقصود به يوسف بن كماشة وزير الملك أبي عبدالله.

(٢) Ganzul لعل المقصود به المولى أبو عبد الله الملقب بالزغل الذي عمل على الإطاحة بالملك أبي عبدالله.

ومعشر بني سرّاج[1] و«زغري»[2] المتكبّر الأنوف

فحملوا بوفاء مثلها عرش الملك بقصر الحمراء الزاهر !

إنها هي الجدران القديمة الطيّبة ذاتها،

ملساء الصفحة رائقة الطلاء والتزويق،

وكم أوت من عابر سبيل منهك ينشد الرّاحة !

إنها ما انفكت على عهدها طيّبة مضيافة،

ولكن ضيوفها الآن بوم شؤم وطيور النحس.

(يدنو من النافذة)

يا للصّمت ! ما سواك أيتها الشمس ينصت إليّ؛

ترسلين إليّ في رأفة ما تبقى من خيوط شعاعك،

وتنثرين نوراً على دربي الحالك الدامس !

اسمعي أيتها الشمس الحنون نصيحتي الصّادقة:

لوذي بدورك بالفرار وهاجري إلى سواحل المغرب،

وإلى الجزيرة العربيّة السّعيدة المناخ على الدّوام؛

ويحك، اتقي شرّ دون فردناند[3] ومستشاريه،

فقد تعهّدوا قسما بمقت كلّ ما سطع نوراً بهيجاً؛

---

(١) Abencerragen

(٢) Zegris لعل المقصود به حامد الذعري.

(٣) ملك أرغونيا (١٤٥٢ ـ ١٥١٦).

ويحك، اتقي دونيا إزابيلا[1] المترفعة المتكبّرة،
التي تخال نفسها في لألأة ألماسها، إذا عمّ
الليل الدّاجي حولها، الفريدة ذات الضياء؛
ويحك، اهربي أنت أيضاً من أرض إسبانيا،
حيث كسفت بعد الشمس الأخرى، أختك،
غرناطة السّاطعة، ذات الأبراج الذهبيّة !

(يبتعد عن النافذة)

أحسّ بضيق يقبض قلبي ويؤلمني،
وكأن كرة اللهيب، شمس الغروب، تمرّغت
على صدري المنهك الهزيل.
جسمي كرماد هشّ شديد الحرّ،
أحسّ كأنّ الأرض تترنّح تحت قدميّ.
إنه مكان أليف عهدته، لكنه يوحشني ويرهبني !
نسيم ناعم يداعب وجنتي فيثلجها،
ويهمس لي سلاماً آتياً من زمان بائد بعيد.
في ذلك الفيء المترجرج يبدو لي وكأنّ
خرافات عهد الصّبا ترتسم أمامي؛

---

(١) ملكة قشتيلية (١٤٥١ ـ ١٥٠٤).

أراها في حراك مسترسل تشير إليّ
وتتبسّم بملامح فطنة، وتستغرب أن تلفي الآن
الصّديق القديم في وحشة وفزع.
وكأني هناك بطيف أمّي الحبيبة يتسامق،
ويحدجني في كدر حزين ويبكي،
ويشير نحوي، بيد بيضاء يشير.
وهناك يلوح لناظري أبي جالساً في غفوة نوم،
على حشايا مبطنة من المخمل الأخضر.

(يقف مكانه غارقاً في التفكير. الليل ينسدل. يلوح في مؤخرة الركح شكل بشري يمرق حاملاً بيده مشعلاً)

أيّ طيف ضباب سرى هناك كالشهاب؟
أهي مجرّد خدعة تتلاعب بي لتهيج جنوني؟
وكأني بالشيخ حسن يمرّ في ذلك المكان!
علّ أن يكون هناك جثمان حسن في جوف قبره،
بينما استمرت روحه تطوف لتحرس هذا القصر،
بعد أن عكف على حراسته طالما كان حيّاً؟
أسمع حفيفا وحسيساً خافتاً ما انفكّ يقترب،

وكأنّ الآباء والأجداد ينبعثون عن القبور
ليقبلوا عليّ مادين الأيادي الهيكلية للتحيّة،
ويقبلوني قبل الترحيب بالشفاه البيضاء الصّقيعة ـ
هاهم يصلون ـ سلامكم قد يميتني ـ

جمع من الرّجال المسلمين ينقضون إلى الأمام شاهرين السّيوف.

مسلم أول:

لا بأس أن يتحقق لك ما توجّست !

المنصور (يجرّد سيفه من غمده):

هيّا ابرزي أيتها التميمة الصّقيلة صانعة المعجزات[١]،
وأقيني شرّ هذه الأرواح الخبيثة !

مسلم ثان:

ما أتى بك إلى قصرنا أيّها الغريب؟

المنصور:

عليك يطرح السّؤال فالقصر قصري،

---

(١) يتجلى هنا مثلاً تأثير اطلاع هاينه على الشعر العربي القديم من خلال ترجمة المعلقات لهارتمان كما أشرنا في المقدمة.

ومن شأن هذا الوكيل

(يشير إلى سيفه)

أن يرسم على بشرتكم حقي بعلامات حمر.

مسلم أول:

ويحك! إذا اعترض وكيلنا فلن تلفي لسانه من خشب؛

إن صوته الفولاذي ليصلّ صليل المعدن الخالص.

(يتبارزان)

مسلم أول:

ويحك، لقد حمي وطيس وكيلك،

ومن خطابه شرر يتطاير.

المنصور:

اخرس، ففي دمك سيطفئه.

مسلم أول:

أوشك وقت اللعب على الختام، أولى بك أن تستسلم.

ينقضّ الحسن بعنف إلى الأمام ماسكاً بيسراه مشعلاً وبيمناه سيفاً.

الحسن:

الله! الله! أهل نسيتم الشيخ تمام النسيان؟

وأنتم تعرفون أن الثأر شأني وحرفتي !

دعوا لي هذا الرّجل، ليكن موته على يديّ.

(يتبارز مع المنصور الذي بدأت تظهر عليه علامات التعب؛ ولما يهمّ الحسن بتسديد طعنة حاسمة لخصمه يلمح وجهه في نور المشعل فينهار متأثراً على قدمي المنصور).

يا إلهي !... ! إنه المنصور بن عبد الله !

المنصور:

نعم، أنا هو، وأنت الحسن كما عرفتك.

هيّا انهض يا خادم بيتي المخلص الأمين.

إنها خدعة ليلية أدخلت علينا الهوس في هذا المكان،

فكاد القصر الأبوي يغدو لي قبراً،

وينقلب مهد الطفولة لي لحداً.

مسلم أول:

لقد خلت لنا بقلنسوتك ومعطفك إسبانيّا،

وحسب سيوفنا الترحيب بالأسبان دون سواهم.

الحسن: (ينهضُ بتراخ ويقول بحزم وصرامة)

تكلم يا المنصور بن عبد الله وأجب:

ما بالك منحشر في هذا اللباس الإسباني[1]؟

من ذا الذي برقش الحصان البربريّ

بقشرة الثعبان المزركشة الفضفاضة هذه؟

الق عنك الغشاء المسموم يا ابن عبد الله !

ارفس بقدمك رأس الثعبان أيّها الجواد الأصيل !

المنصور: (مبتسما)

مازلت ذلك التقيّ المتزمّت كما عهدتك،

تتشبّث تشبثا بالألوان وظاهر الأشكال.

أما قشرة الثعبان فما هي إلا وقاية من الثعابين،

مثلما يقي غشاء من جلد ذئب الخروف

الذي يسرح مسالما أعزل وسط الغابات.

رغم القبّعة والمعطف فإنني مسلم وما تغيّرت،

وفي باطن صدري هنا أكنّ عمامتي.

الحسن:

الحمد لله ولله الحمد !

اذهبوا استريحوا يا إخواني، سأتكفل الحراسة؛

---

(١) كانت سلط محاكم التفتيش بالمرصاد لكل ظاهرة ذات علاقة بالإسلام لتردع صاحبها بشديد العقاب، لذا تحتم على المنصور التخلي عن لباسه الشرقي والتنكر في زي أهل البلاد المسيحيين.

لقد استعاد الشيخ حسن شبابه على حين غرّة.

(ينصرف الرجال المسلمون)

المنصور:

من هؤلاء الذين دعوتهم إخوتك يا حسن؟

الحسن:

ويلاه، انهم من تبقى من الرّجال الأوفياء

الذين مازالوا يجاهدون في سبيل الله.

لقد قلّ عددهم وهاهم يتضاءلون من يوم إلى يوم؛

في حين ما انفك عدد الأوغاد ينمو ويتضخم.

المنصور:

ما أشدّ سقوطك إلى درك الحضيض يا غرناطة!

الحسن:

أتعجب من سقوط مدينة تآمر عليها عدوّان؟

في داخلها سادت الضغينة والنميمة[1]

وتربّص في خارجها الكيد بالمرصاد.

اللعنة على ليلة تلاقى فيها كيد النساء

بطمع الرّجال في ساعة جماع.

---

(١) تلميح إلى الأوضاع الشبيهة بالحرب الأهلية التي عمت في مملكة غرناطة في آخر أيامها والتي استقى هاينه أخبارها من شتى مصادر عمله.

اللعنة على ليلة خطط فيها وقرّر

أثناء العناق هلاك غرناطة ورزيتها.

اللعنة على ليلة التأم فيها على سرير العرس

دون فردناند بـ دونيا إزابيلا وتضاجعا[1] !

إذا قدح زوجاً نميمة كهذين شررا

فلابدّ أن تضطرم في البيت النار.

ما كان السّبب حربة بطل ليون العتيد،

ولا رمح القائد الأراغوني الأبيّ،

ولا سيوف فرسان قشتيلية القواطع ـ

غرناطة وحدها السّبب في سقوط غرناطة !

حين يغتال الأب الأبناء الأبرياء،

فلذات كبده العزل، في المهد،

وحين يلوّح الابن بحقوق مغتصبة،

ويتجاسر بها على هامة أبيه المقدّسة،

وحين يرتقي الأخ الشقيّ، بعد أن داس جثمان أخيه،

درجات عرش الملك الملطخة بالدّماء،

---

(١) تم زواج صاحبي الملك ـ المعروف كلاهما بلقب «الكاثوليكي» ـ سنة ١٤٦٩. واستقى هاينه من بعض مصادره أن ازابيلا «التقية» اشترطت على العريس التزامه بافتكاك غرناطة من المسلمين.

وحين ينحط بعض أعيان البلاد المتهوّرين
فينضوون تحت رايات الأعداء فاقدين الشرف:
حينذاك تفرّ الملائكة، حرّاس أبواب المدينة،
وتدخلها جحافل الأعداء منتصرين[١].

المنصور:

مازلت أذكر ذلك اليوم المنحوس التعيس؛
كنت عند باب القصر حين أقبل فجأة
فارس يلهث على صهوة فرس أسود،
زائغ النظر، منقطع النفس، شديد الاضطراب؛
فسأل عن أبي ومضى إليه سريع الخطى،
وعند الدّرج ارتمى بين أحضانه وانهار.
حينئذ تفرّست فيه عليّا، ذلك الرّجل الطيّب ـ

الحسن: (بمرارة)

الرّجل الطيب علي!

---

(١) شددت مصادر هاينه على الصراعات والفتن التي كانت دائرة بين فرق المسلمين وقادتهم بينما العدو على الأبواب. كما شدد الشعراء الأندلسيون على هذا الانشقاق كسبب من أهم أسباب الهزيمة والنكبة. من ذلك ما قال لسان الدين بن الخطيب (في «رقم الحلل في نظم الدول»):

وبان في الأندلس الفساد ... وانتثرت من ضعفها البلاد
وأخذت أمانها النصارى ... وأصبح الناس بها حيارى

المنصور:

«تكلم يا علي، أيّ خبر تحمل معك؟»

هكذا سأل أبي بلهفة. إذ ذاك انفجر

سيل دموع عليّ وانهمرت في حلكة الدّم؛

وفي شهيق قال: لقد سقطت غرناطة،

ودخلها دون فردناند ودونيا إزابيلا

منتصرين بين دقّ الطبول ونفخ الأبواق،

وسلمهما أبو عبد الله في ركوع

المفاتيح على طبق من ذهب،

ورفعت عالياً فوق برج قصر الحمراء

راية قشتيلية وصليب مندوزا.

الحسن: (واضعا كفيه على عينيه)

الهي، أرجوك فقط أن تمحو

من ذاكرتي...! مشهد الهول هذا !

المنصور:

مازلت أذكر كيف شلّ الخبر الصّاعق

الألسن في كلّ حلق وأخرسها.

جثم أبي مكانه شاحباً بكما شاخص النظر،

وقد ارتخى ذراعاه وارتعشت رجلاه.

وما أن خرّ هامداً حتى علا زعيق النساء والعويل.

الحسن:

أمح من ذاكرتي مشهد الرّعب هذا !

المنصور:

آنذاك ضمّني الرّجل الطيب عليّ إلى صدره،

وأغمض عينيّ ليعفيهما من المشهد المريع،

ثم جرّني معه وأركبني على صهوة فرسه ـ

الحسن: (يضحك بمرارة)

وحملك إلى قصره الجميل،

حيث استقبلتك سليمة اللطيفة

وجففت دمع عينيك بابتسامة،

إن لم تكن هي قبلة ـ

المنصور:

يا لك من متكدّر مهذار يا حسن...!

لا تنس أني كنت صبياً في ذلك الحين.

ثم أنك أخطأت، إذ ما تيسّر لبريق

لحظ سليمة أن يجفف عيني الدامعة.

اثر ذلك انسحبت خلسة من بيت عليّ

وعدت أدراجي إلى هنا في بضع ساعة.

هنا ألفيت أبي يتخبط على الأرض،
ثيابه ممزقة ورماد منثور على رأسه[1]،
لحيته البيضاء منتوفة مبعثرة الخصلات.
وكانت أمّي بجانبه تبكي في لحاف أسود،
وبالسّواد التحفت كافة نساء البيت.
وكلما استتبّ السّكون كان يكفي أن ينبس صوت
بـ«غرناطة» حتى يعود العويل بضعف ما كان.

الحسن: (وهو يبكي)

لا تنضبي أبد الدهر يا منابع الدّمع!

المنصور:

كفاك غمّاً يا حسن...! يا أيّها الشيخ!
أحرى بك ذلك المظهر، شهما كالليث،
لما دخلت علينا ترفل في زيّ الحرب،
مدجّجاً بالسّلاح، فأدخلت علينا الدّهشة.
مازلت أراك وأنت تخاطب أبي قائلاً:
«لا أستطيع البقاء في خدمتك يا عبد الله،
في حين يحتاج الله إلى من يخدمه».

---

(١) يرى هنا من يشدد على غلبة العنصر اليهودي في تأويل «المنصور» حجة أساسية بدعوى أن عادة تلويث الرأس بالرماد عند المآتم من عادات اليهود ولا يستعملها المسلمون.

ثم أنك غادرت القاعة في حزم وثبات،
ومنذ تلك اللحظة لم أرك ثانية إلى الآن.

الحسن:

لقد التحقت بأولئك المكافحين الذين التجئوا
بقلوب وقادة إلى أعالي الجبال المغطاة بالصّقيع،
ومثلما لا تزول الثلوج في تلك القمم أبداً،
فإن الوهج في الصّدور لم يزل البتة؛
ومثلما لا تتزعزع تلك الجبال بتاتاً،
لم يتزعزع إيماننا الخالص بالمرّة،
ومثلما تتهاوى من تلك الجبال الصّخور،
ماحقة ساحقة ما يعترض سبيلها كافة،
نهوي بجموعنا من قممها دون هوادة،
ماحقين ساحقين النصارى في الوادي؛
وحينما يئنّ الأوغاد وهم يلفظون الأرواح،
وتدقّ نواقيس المآتم معولة في المدى،
تصحبها تراتيل الفواجع خافتة صمّاء،
نطرب لها أيمّا طرب وننتشي.
إلا أن نبيلهم دون أغيلار وفرسانه
ردوا إلينا الزيارة الدامية قبل أيام مضت

وفرضوا علينا رقصة الختام؛

وبين زعيق الأبواق وقرع طبول المدافع

وقعقعة السّيوف القشتيلية

وأزيز الرّصاص المتطاير المدوي،

اعتلى المسلم منا بعد الآخر إلى رحاب السّماء،

ولم يغادر حلبة الرقص سليما إلا القليل.

والآن حدّث يا منصور وارو ما جرى لك؟

لقد أتيت حديثا مع رفاقي هذا المكان

فألفيته مقفر القاعات، جدرانه جرداء تطلّ كئيبة،

والقصر البائس الحزين بأسره لا ينذر إلا بالشؤم.

المنصور:

لا تستحثني على مرثية بالله عليك،

ودع الأموات وهموم المنصور في سباتها تنام.

لقد كنت شاهد عيان يوم أقبل عليّ

يجرّ الرزية على متن فرس أدهم حالك.

وما من طبع الرزايا أن تفد دون ما يتبعها !

وتواترت أخبار النحس من غرناطة يوما بعد يوم؛

فكنا في كل مرّة نرتمي على الأرض ننشج بالبكاء،

كما يفعل عابر الفلاة حين تلفحه ريح السّموم،

إذ يكاد لفح الأخبار السّامة أن يردينا قتلى.

ذات يوم سمعنا عن مروق رجال ديننا عن عقيدتهم،

من أئمة وقضاة وفقهاء ـ

الحسن:

إذا ما عرض دين للمتاجرة كأيّ بضاعة،

فلا بد أن القساوسة هم إلى السّوق أسبقون.

المنصور:

ثم سرعان ما بلغنا أن «زغري» ذا المقام الرفيع

بادر من شدّة الهلع إلى اعتناق الصّليب،

وأن أفواجاً من عامة الناس اقتدوا بمثال أعيانهم،

وأن الآلاف أخضعوا الرؤوس للتعميد ـ

الحسن:

وكأنّ السّماء الجديدة تستهوي ذوي الآثام القديمة.

المنصور:

سمعنا أن خيمناس الرّهيب[١] عمد في قلب

سوق غرناطة ـ يكاد يخرس لساني في حلقي ـ

---

(١) من مصادر المسرحية الكتاب التالي حول الكردينال فرةشسكو خيماناس الذي ترأس محاكم التفتيش وقاد بصرامة إجراءات التنصير عند سقوط غرناطة: Esprit Fléchier: Histoire du Cardinal Ximenes. Paris 1693.

إلى إلقاء القرآن في لهب محرقة.

الحسن:

إنما هي المقدمة فحسب. هناك حيث تحرق

الكتب، لا بدّ أن يحرق في النهاية البشر[1]،

المنصور:

ونزل في آخر المطاف الخبر الأفظع:

(يعجز عن الكلام)

أن علياً، الرّجل الطيب، ارتدّ عن دينه وتنصّر.

(استراحة)

عند ذاك لم تسكب عينا أبي دمعة واحدة،

ولم تنبس شفتاه بلفظة أسى،

ولم ينتف شعرة واحدة من رأسه الهرم ـ

ملامح وجهه فقط تقلصت في تشنج،

وتفجّر صدره عن ضحك موحش متوتر يصدع الفؤاد.

ولما دنوت منه باكياً بكاءً مستتراً، انتاب

أبي المسكين ما يشبه نوبة الجنون.

---

(١) هنا أيضاً يستند هاينه إلى معطيات مصادره التي تذكر الآلاف من ضحايا محارق محاكم التفتيش. غير أن القولة أصبحت بعد جرائم الحكم النازي بمثابة نبوءة تذكر وتعاد في هذا السياق.

استلّ الخنجر ونعتني بـ«لقيط الأفاعي»،
وهمّ بطعن صدري - وعلى حين غرّة
ارتسم على شفتيه ما بدا لي ألم مشوب برقة،
وقال لي: «لا يحقّ أن تكون الفدية يا بنيّ!»
وقصد مترنحا حجرته حيث استتبّ السّكون.
وفيها أمضى أيّاما ثلاثة ما ذاق طيلتها طعاما
ولا شراباً. وحين أطلّ من جديد كان حاله قد تغيّر.
في منتهى الهدوء أمر الخدم أن يوثقوا كلّ ما ينقل
على الدّوابّ، والنساء أن يهيّئن زادا[1] لسفر طويل.
ولما تمّ ذلك احتضن بنفسه أثمن ما لديه،
الرقعة العتيقة التي خطت عليها السّنن المحمّدية[2]،
والتي جاء بها الأجداد في سالف العهد إلى الأندلس.
وهكذا غادرنا أرض الوطن الحبيبة وارتحلنا،
بين حسرة ورغبة، وكأنّ أصواتاً ناعمة خفيّة تشدّنا

---

(١) في الأصل «خبزاً وخمراً» ولا يحتمل أن هاينه يجهل آنذاك تحريم الخمر على المسلمين بل الأرجح أنه استعمل العبارة في صيغتها الدارجة بمعنى مؤونة للاقتيات أو زاد، كما عرّبنا بديلاً عن الصيغة الحرفية.

(٢) ظل القرآن في الغرب طويلاً ينظر إليه، كما هنا، باعتباره Die Gesetze Mahomets أي «قوانين محمد». وكأن هاينه تصوّر عن حق أن من عرب الأندلس الأوائل من أتى ومعه مخطوطات من القرآن واحتفظ بها عبر الأجيال.

إلى الوراء، بينما يدفعنا عويل ذئاب إلى الأمام.

بلهفة شبيهة بقبلات أمّ لحظة الوداع استنشقنا

عبق غابات الرّيحان والليمون الأندلسيّة الشذيّة،

بينما خال لنا حفيف الأغصان، ونحن نبتعد

في رهبة وسكون، نحيب فراق خافتاً حزيناً،

ودغدغة نسمات الصّبح الرقيقة مواساة أنيسة،

وتغريد الطيور الجميلة أناشيد الوداع الأخير.

الحسن:

رحلتم وفي قبضتكم الأمينة خير عصا للترحال،

عقيدة الأجداد وإيمانهم الراسخ المتين.

المنصور:

وهناك حيث حط طارق رجله على هذه الأرض فاتحا،

ركبنا على عجل وعبرنا البحر إلى بلاد المغرب،

حيث التجأت على غرارنا حشود من خيرة القوم.

ولكن ما أن وصلنا حتىّ شحب وجه أمّي ثم ماتت

وأسندت رأسها المهموم هناك في مثواها الأخير.

الحسن:

وكيف لا تذبل زهرة الزنبق الناعمة وتفنى،

إن اقتلعتها يد خشنة وغيرت لها المنبت عنوة.

المنصور:

وفي ثياب النعي تركنا المكان وواصلنا الرّحيل،

بعد أن انضممنا إلى بعض قوافل الحجيج

القاصدة أرض مكة المكرّمة لأداء الفريضة.

وفي اليمن، وبين أبناء قبيلة سلفه، أغلق عبد الله

بدوره عينيه الناضبتين من فرط البكاء،

وانطرح ووجهه قبلة وطن

لا أثر فيه لإزابيلا ولا لأيّ خيمناس.

الحسن:

أو ليس في الأرض العربية مكان

يتسنى لك فيه رثاء الأب المرحوم؟

المنصور:

ويلاه، ألا تعرف عذاب المتشرّد فقيد الرّاحة،

الذي تدفعه سياط اللهب اللاذع الخفيّة دفعا!

لقد تشوّقت أن أقبّل ثانية أديم الأندلس -

الحسن:

وبالمناسبة شفتي سليمة أيضا.

المنصور (في جذ):

ليس لخادم الأب أن يكون للابن سيّداً.

لذا أرجوك أيها المرير أن تدع التعريض المرّ.
نعم، لا أنكر أني أحنّ كثيراً لرؤية سليمة،
كما يحنّ تراب الصّحاري إلى ندى الصّبح.
إني أعتزم الذهاب إلى قصر عليّ هذا المساء.

الحسن:

حذار أن تذهب إلى قصر عليّ !
تحاش المكان كما لو ساده الطاعون،
ففيه تترعرع بذور عقيدة بديلة.
هناك، وبمقبض من الأصوات الرّخيمة،
سينزع من قرارة صدرك القلب الأصيل
ليعوّض بأفعى سامّة مكانه.
هناك سيقطر على رأسك المسكين
قطرات حامية من سائل الرّصاص
فلا يشفى عقلك من داء جنوني أليم.
هناك ستعوّض عن اسمك المألوف بآخر غريب،
فإذا بملاكك لا يستجاب إن هو ناداك محذراً نذيراً.
ويحك أيها الفتى الغاوي، لا تذهب إلى قصر عليّ،
مآلك الضياع إن تعرّفوا فيك المنصور !

المنصور:

لا تخش شيئا. ما من أحد هنا سيكتشف من أنا.

وجهي مسخته خدوش الأسى العميقة،

وعيناي أرمدتهما سيول الدّمع الحامض،

ومشيتي المترنحة تبديني ثملاً سكراناً،

وصوتي أصبح متقطعاً كفؤادي -

فمن يتوقع فيّ المنصور اليانع مثلما عهدت؟

نعم، يا حسن، نعم، إني أحبّ ابنة عليّ !

مرّة فقط أريد أن أرى الفتاة اللطيفة !

وحالما أمتع بصري بقامتها الهيفاء،

وأغمس روحي في لحظها،

واستنشق منتشياً نفسها العذب،

أشدّ رحالي وأعود أدراجي إلى البيداء العربية،

فأجلس على تلك الصّخرة الناتئة،

التي جلس عليها المجنون وناجى ليلى !

فلا تخش عليّ شيئاً أيها الشيخ حسن،

سأذهب متنكراً في المعطف الإسباني،

وأطوف متستراً في أرجاء القصر،

ومعي دجى الليل حليف يقيني.

الحسن:

لا تثق بالليلة فإنها تخفي في لحافها الأسود
أشباحا لئيمة وعفاريت سامّة وحيات،
تلقي بها تحت قدميك فلا تفطن. لا تثق
بفتنتها الشاحبة وهي تومض بغمزات مغرية
من بين السّحاب فتضفي بريقاً كاذباً خادعاً
على الأشكال المفزعة عرض طريقك.
لا تثق ببناتها اللقيطة، اللألاءة هناك فوق،
فهي تغريك بإيماءات لطيفة من شعاع برّاق،
لتشهّر بك في النهاية ساخرة بآلاف الأصابع الوهّاجة.
حذار أن تذهب إلى قصر علي! على بابه ثالوث
من النساء حالكات المظهر ينتظرن عودتك[1]،
ليعانقنك بمنتهى الشوق عناقاً خانقاً،
ويمتصصن لك بقبل العشق دماء قلبك!

المنصور:

ألق بنفسك على نواعير الطواحين لتحبسها،
تعرّض بصدرك لتيار نهر جارف لتصدّه،

---

(١) تلميح إلى الهات القدر الثلاث حسب الميثولوجيا الإغريقية (die Parzen) وأساطير الشعوب الجرمانية أيضاً (die Nornen)

أوقف بساعديك شلال ماء هادر، إن شئت -
لكن إيّاك أن تمنعني من الذهاب إلى قصر علي.
إنها آلاف من الخيوط الماسية تشابكت والتحمت
بعروق دماغي وبألياف قلبي لتجذبني إليه حتما.
نم هنيئاً يا حسن ! سيكون لي حسامي نعم الرّفيق.

الحسن:

ودين أجدادك سراجك المنير.

قصر عليّ. غرفة ذات باب وسطي كبير. يسمع عزف موسيقى.
دون انريكه راكعا أمام سليمة.

دون انريكه: (متكلفاً أسلوباً شعرياً)

ياله من شذى ساحر دوّخني،
فصرت لا أعرف ما أفعل !
دعيني أسجد أمامك معجباً،
لأحيّي فيك السّيدة العذراء !
إنك سيدة الشعاع في السّماء،
عار عليّ أن أواجهك بنوايا العشق الدنيويّ !
حتى لو جمع بيننا رباط الزوجية -

أبد الدهر أظلّ راكعا لك عبدا !

(توقفت الموسيقى عن العزف. أثناء هذا المقطع يتسلل دون دياغو إلى الداخل ويفتح الباب على مصراعيه. تتجلى قاعة فاخرة زاخرة بالحاضرين في حفل راقص. يتوقف الأزواج عن الرّقص ملتفتين في غبطة وحبور نحو دون انريكه وسليمة. بعض الأصوات تهتف:

مرحى، مرحى، مرحى لعريسينا الجميلين !

نغمة توش. يقف دون انريكه. دون دياغو يتسلل منسحباً. يظل الباب الوسطي مفتوحاً).

سليمة: (بنبرة جادة).

خذني إلى القاعة !

دون انريكه: (يناولها ذراعه. في اضطراب).

سيّدتي، أنه فعل خادمي، الصّعلوك الماكر.

سليمة:

حسناً سيّدي، لا بأس.

عليّ وفارس يتقدّمان إلى الباب نحو الاثنين السابقين.

عليّ: (يمسك دون انريكه من ذراعه).

كلا يا عزيزتي كلارا، دعي لي خطيبك؛

هاهو ذا دون رودريغو يرافقك إلى القاعة.

تنصرف سليمة رفقة الفارس. الباب الوسطي يوصد.

دون انريكه:

أستغرب أن ـ

عليّ:

أنسيت سيّدي أنني مازلت أحتفظ لك بسرّ،

وعدتك بأن أبوح لك به لما يحين موعد الزفاف؟

دون انريكه: (بفضول وتملق)

صحيح! لكنك قد أحسنت إليّ بما فيه الكفاية ـ

عليّ:

أنا لم أفعل شيئا.

كان القرار في يد دونيا كلارا

إن هي ترضى بك زوجاً أم لا.

دون انريكه:

لا يا سيدي، كلمتك بوصفك الأب هي الحاسمة.

عليّ:

لعلني ما كنت أوافق على أن تزفّ إليك كلارا

لو توقف القرار عليّ، لكنني لست صاحب حقّ،

وهاهو سرّي: أنا لست والد كلارا.

دون انريكه: (في ارتباك)

لست أنت والدها؟

عليّ: (مبتسما)

هوّن عليك سيدي، لقد اعترفت بها بالشهادات والوصيّة

ابنة لي. عساك الآن تفهم لم يكون قرار الزواج بيدها.

ولكن حذار، لا أحد هنا، بما في ذلك هي ذاتها،

على علم بهذا السرّ الدفين.

دون انريكه:

سيّدي، أستغرب أن ـ

عليّ:

لكن من واجبي أن أطلعك عليه وأنت العريس.

أرجوك أولا أن تعدني بكتمانه،

حتى حيال عروسك، لكي لا تمنى بصدمة أليمة

ولا ينغص الهناء والرّاحة في قلبها الطاهر.

دون انريكه: (يمدّ له يد العهد)

وشرفي وأنا الفارس النبيل أعد بكتمان السرّ.

عليّ:

أنت تعرف أنني ما كنت أدعى في السّابق دون غونزلفو.

دون انريكه:

على كلّ فقد كان لائقاً بك ذلك الاسم الذي كان

جميع الناس يطلقونه عليك: عليّ الطيّب.

عليّ:

نعم! هكذا كنت أسمّى: عليّ الطيّب!

وكان الأجدر أن أدعى عليّ السّعيد.

لقد كان عليّ سعيداً حقاً، بالصّداقة وبالمحبّة.

حباني الله بصديق، هو كنز لا يضاهيه كنز.

وبامرأة فائقة الجمال، نقيّة السّريرة ـ

بل هي ملاك زفه الله إلى قلبي الممنون.

ولم أحرم كذلك من سعادة أبويّة.

لقد أنجبت لي امرأتي الصّالحة ولداً؛

لكنها لم تلبث أن شحبت، وازدادت شحوباً،

ثمّ فارقت الحياة.

إذ ذاك أغدق الصّديق المواساة على قلبي المنكوب؛
وصادف أن أنجبت زوجته في ذات الحين بنيّة،
فشاءت تلك المرأة الخيّرة أن تكفل رضيعي اليتيم.
فأرضعته كذلك وربته كأمّ حنون إلى أن نما[١]،
ولكن ما أن استعدت الصبيّ وعدت به إلى البيت،
حتى تحيّر الألم الدفين وتأجّجت الحسرة على فقدان والدته.
ولم يخف هذا على صديقي الفطن، فقال لي ذات يوم:
ما رأيك يا عليّ لو نتفق من الآن على اقتران طفلينا
فنوطد بذلك أواصر صداقتنا على الدّوام؟
فارتميت في عنق صديقي والبكاء يهزني؛
وفي تلك السّاعة تقرر أن آخذ إليّ ابنة الصّديق
وأسهر على تربيتها بنفسي بمعونة أمة،
لتكون للابن خير زوجة، وأن يستبقي الصّديق ابني لديه
ويتكفل برعايته، فيكون لابنته نعم الزوج وله نعم الصّهر.
وهكذا تمّ الأمر.

دون انريكه:

إني متشوق لـ

(١) يبدو أن هاينه لم يع بتحريم الزواج بين أخوين من الرضاعة عند المسلمين فيصبح بالتالي مشروع الزواج بين المنصور وسليمة، كما سيأتي، غير دارج.

عليّ:

كبر الطفلان وتعوّدا على التلاقي وتبادلا المحبّة ـ
إلى أن حدث الحدث وعصفت العاصفة. أنت تعرف
كيف زعزع برقها أبراج الحمراء في ذروتها،
كيف انحشر أعزة قوم غرناطة في دين الصّليب،
وكيف أن الأمة المسيحية وفقت من زمن
في استمالة قلب سليمة الرّقيق إلى تعاليم المسيحيّة،
إلى أن اعترفت الفتاة العفيفة علنا بالسيّد المسيح،
فحبت مع التعميد باسم كلارا الجميل.
واتبعت أنا نفس الطريق، طوعا لنداء قلبي،
واقتداء بابنة تربيتي الحبيبة. ولم أشكّ ولو قليلا
في أن صديقي وصنوي سينسج على نفس المنوال.
ولكن يا لهول الخطأ. لقد ظهر مسلماً متزمتاً،
فتقبّل الخبر بغضب عارم شديد؛ وأبلغني
أنه يعتبر عدوّ دينه عدوّا له لدودا؛
وأنه يرفض قطعا أن يرى وجه الكافرة الملحدة،
ابنته، وأنكر الصّلة بها بدون رجعة؛
وقال إنه قرّر الهروب من أرض الأفاعي،
واعتزم التضحية بطفلي، ابنه بالتبنيّ،

ليكون فدية وقربانا لأجل غضب الله، وبدمه
تكفيراً على كفر والده ومروقه عن دينه.
ولم يحجم الوحش عن تنفيذ ما توعّد به !
أسرعت إلى قصره ولكن بدون جدوى؛
لقد شدّ الرّحال هارباً ومعه فريسته.
لم أر الصبيّ التعيس منذ ذلك الحين؛
ثم إني سمعت من تجّار وفدوا من المغرب
أن ابني قد قتل ولم يعد على قيد الحياة.

دون انريكه: (بأسى متكلف)

فظيع ! فظيع ! شفقة عارمة تغمر كياني !
أحسّ بقلبي ينشف من دمه ! أولم تفكر
في الانتقام من هذا الوحش كما يستحق؟
أو لم يكن في قبضتك ابنته؟ فكيف تصرّفت إذن؟

عليّ: (بافتخار)

تصرّفت سيّدي تصرّف المسيحيّ.

(ينصرف)

دون انريكه: (بمفرده)

هل أخبر دون دياغو بكلّ هذا؟ أجل، أجل.
سأريه هكذا أنه لا يعلم بكلّ شيء كما يدّعي.

إنه يحسبني غبيّا ويستبلهني. هيهات لو درى !

سيتضح إذن من منا الغبيّ ومن هو ذا الفطن.

(يعود عزف الموسيقى الراقصة)

كفى هذا الآن. هاهي أصوات أجمل تنادي،

وليس يليق أن نطيل انتظار السيّدة الجميلة.

(ينصرف)

(الحال ليل. قصر علي من الخارج. النوافذ مضاءة. موسيقى راقصة مرحة تسمع من داخل القصر. المنصور يقف أمام بوابة القصر شارد البال. يتوقف العزف).

المنصور:

موسيقى رائعة جميلة والله. لكن وا أسفاه !

أسمع وقع الدفّ ورنينه الحلو الجميل،

فأحسّ كأن ألف حيّة تلدغ قلبي؛

أسمع نغمة الكمنجة تنساب هادئة رخوة،

فأحسّ وكأنّ خنجراً يمزق صدري؛

أسمع نفخ المزامير يتعالى من خلالها،

فأحسّ بصعقة برق ترعد كلّ كياني،

وأسمع ضرب الطبل يدوّي أصمّ الصّدى،
فأخاله وقع دبابيس تقرع رأسي.
أنا وهذه الدار، ما الذي يربط بيننا؟
(يشير إلى القصر وإلى نفسه مرة بمرة)
هناك يسكن المرح المصحوب بأصوات الجنك؛
وهنا يسكن الألم المشفوع بلدغ الأفاعي السامّة.
هناك يسكن النور المنبعث من الثريات الذهبية؛
وهنا يسكن ظلام الليل بكآبته الفاحمة القاتمة.
هناك تسكن الحسناء الحبيبة سليمة ـ
(يفكر برهة ثم يشير إلى صدره)
أجل، ثمة ما يربط بيننا ـ هنا أيضاً تسكن سليمة.
مهجة سليمة تسكن هنا في هذه الدار الضيقة.
إنها تجلس هنا في هذه الحجرات القرمزية،
وتلعب بكرة قلبي وتداعب أوتار جنك سأمي،
بينما تقوم زفراتي مقام الخدم طوعا لها ـ
وكذلك يقف مزاجي الحالك حارساً خصيّاً
على باب خدرها يحرسها ويصون حرمتها.
(يشير إلى القصر)
ولكن ما تراءى لي هناك في القاعة الوضيئة

يرفل متبختراً في حلة فاخرة قشيبة،
ويومئ بلطف برأسه بهيّ الخصلات المتجعّدة،
نحو ذلك الغلام المبطن بالحرير ركيك الانحناء ـ
ما هو سوى ظلّ سليمة الشاحب،
دمية متحرّكة، لا غير، جعلوا عينا زجاجية
في وجهها المصنوع صنعا من الشمع،
وإن هي هزت صدرها الخاوي كما للنفس
فبدفع لوالب ودواليب آلية تعدّل.

(نفخ بوق: «توش»)

ويلي، هاهو ذا الغلام الحريري يعود،
ويدعو الدمية المتحركة للرقص.
من عينها الزجاجية الحبيبة بريق عذب يندلع !
وجهها الشمعي اللطيف يتحرّك باسما !
صدرها البهيج ذو اللوالب ينتفخ وينتفج !
وعلى هذه البدعة الاصطناعية الرهيفة
يد الوغد الغليظة تديرها وتتحكم فيها ـ

(موسيقى راقصة)

إنه يحتضنها بساعدين وقحين ويجرها معه
إلى غمرة الراقصين المتماوجين في هيجان !

أوقفوه ! أوقفوه يا جنون آلامي،

وافصلوا الوغد اللئيم عن جسد الحبيبة !

أقصفيه ! أقصفيه ! يا صواعق سخطي

وأعيقي اليد التي تجرّأت على لمس سمائي !

انهاري ! انهاري يا جدران القصر

واهوي على رأس هذا الآثم وامحقيه !

(استراحة؛ موسيقى خافتة)

إنها تأبى أن تتزحزح، هذه الجدران العتيقة،

وسخطي العنيف يصطدم بأحجارها ويتلاشى.

إنك قويّة البنيان أيتها الجدران الصّلبة،

ولكن لك ذاكرة ضعيفة واهنة !

أنا اسمي المنصور وكنت لعليّ الطيب

عزيزاً وحبيباً، يجلسني على ركبتيه

ويدعوني «ابني العزيز»، ويلاطفني

ويمسح بيده بكامل الودّ على رأسي.

وهاأنا الآن واقف على الباب كمتسوّل مستجد.

(يتوقف العزف. يسمع من داخل القصر جلبة وضحك عال)

هاهم يسخرون مني. ولم لا؟ دعني أشاطرهم الضحك !

(يقرع الباب بقوة)

افتحوا الباب ! افتحوا الباب ! عابر يسأل ضيافة ليلة !

ينفتح باب القصر. بدريللو يطلّ ماسكاً شمعداناً؛ يظل واقفاً بالباب.

بدريللو:

بحق القديس بيلاطوس ! لم هذا الطرق العنيف؟

ثم إنك تأخرت وأطلت، إذ الحفل قد شارف على النهاية.

المنصور:

لا أسأل عن حفل بل ألتمس ملاذا لقضاء الليلة؛

أنا غريب ومتعب، ودهمني الليل في هذا المكان.

بدريللو:

برأس النبيّ - أعني القدّيسة اليـ - اليزابات -

لم يعد القصر ما كان عليه فيما مضى مأوى للضيافة.

هنالك غير بعيد من هنا محلّ يقال له فندق.

المنصور:

إذن لم يعد الرّجل الطيّب علي ربّ هذا البيت،

إن حرّمت الضيافة على القصر وهجرته.

بدريللو:

وعهد القديس يعقوب الـ القمبوستللي !

خذ حذرك أيّها الغريب، إذ أن دون غونزالفو

ينتابه الغضب إن دعاه أحد عليّا الطيب.

سليمة فقط ـ

(يضرب بكفه على الجبين)

أعني دونيا كلارا،

يجوز لها أن تدعوه باسم عليّ. وعليّ

بدوره يخطئ عادة ويدعوها سليمة.

أنا أيضاً تغيّر اسمي فلم يعد حمامه

بل بدريللو، كالقدّيس بطرس لما كان صبيّا.

وكذلك الطباخة العجوز حبابه تدعى الآن

بطرونيللا، أسوة بزوجة القديس بطرس سابقاً.

أمّا عن عادة الضّيافة فهي من تلك العادات

الوثنية التي تطهّرت منها هذه الدار المسيحيّة التقيّة.

ليلتك سعيدة ! يجب عليّ الآن أن أنير لضيوفنا؛

الوقت متأخر ومنهم من يقطن بعيداً.

(يدخل القصر ويطبق الباب بقوّة. تسمع جلبة من داخل القصر)

المنصور: (بمفرده)

عد أدراجك أيها الزائر، إذ لم يعد يقيم هنا

عليّ الطيّب ولا كرم الضيافة.

عد أدراجك أيها المسلم، فالدّين الأصيل

قد غادر هذا البيت من زمان وارتحل.

عد أدراجك يا منصور، فحبك الماضي

قد طرد إلى الباب تحت هزء الهازئين.

تبدّلت الأسماء وانقلب الأشخاص؛

ما كان يسمّى حباً أصبح اليوم كرها ـ

هاهي أصوات الزائرين تقترب،

من الأفضل أن أتنحّى جانباً حيد الطريق.

(ينصرف)

تفتح بوّابة القصر على مصراعيها؛ جلبة وضوضاء. خدم في الطليعة يرفعون المشاعل.

صوت علي:

لا يا سيدي، يستحيل أن أرضى لك بذلك أبداً.

صوت آخر:

الليلة جميلة حقاً، نجومها تسطع في السّماء.
جيادنا وبغالنا في القرب هناك، وكذلك
العربات الوثيرة لحمل السّيدات الحسناوات.

صوت ثالث: (مواسيا)

مسافة قصيرة فقط يا سيّدتي،
وليست كبيرة على قدمك الصغيرة.

سيّدات وفرسان وحملة مشاعل وعازفون وغيرهم يتوافدون من داخل القصر.

مع كلّ سيّدة فارس يرفقها.

فارس أول:

هل فهمت الإشارة الخفيفة يا سيّدتي؟

السيّدة رفيقته: (مبتسمة)

إني أراك اليوم ماكراً شديد المكر يا دون أنطونيو.

(يبتعدان)

سيّدة أخرى: (بحماس)

بأيّ حال كان الطرز كثير الزخرفة مثقلاً،
ثم أنّ الفصالة توحي شيئاً ما بالنمط الأندلسي.

الفارس: (بجدّ متصنع)

ولكن ماذا تريدين أن تفعل الفتاة المسكينة

بكلّ ما تبقى لها من لباس أندلسي نفيس؟

السيّدة:

أو ليس هناك حفلات رقص مقنّعة، أيّها السّاخر الظريف؟

(يبتعدان)

فارسان يسيران اليد في اليد.

الأول:

أرأيت كيف امتقع وجه الشيخ ربّ البيت غضباً،

لما أتاه الخادم فزعا بخبر حرق الشواء،

ويداه متقاطعتان على صدره؟

الثاني: (ساخراً)

ليس ذلك الأهم. لقد كاد ينفجر من الغيظ المكتوم،

لما انبرى كارلوس يمدح رأس الخنزير المصلي،

ويعيب على الرّسول باستخفاف أنه حرم

أمّته من طبق شهيّ كهذا.

الأول: (بسخاء)

من باب الغباء الخالص فقط زلّ ذلك الأكول النهم،

وقد زاد النبيذ وعبق الشواء في نشوته.

الثاني: (بالتفاتة ماكرة)

عادة ما يتحالف الغباء مع الخبث.

(يبتعدان)

فارسان آخران يقتربان منهمكين في الحديث.

أحد الفارسين: (وهو يلتفت حواليه في حذر)

لاشك أننا كنا المسلمين المتنصّرين الوحيدين

اللذين دعاهما عليّ للحفل؛ وعندما طفق كارلوس.

الفارس الثاني:

نعم، تشنج وجه عليّ وتقلص لما انتابه من وجع،

ونظر في اتجاهنا مستفسراً ـ بمن نثق اليوم؟

(يبتعدان في أناة)

عازفون يمرّون وهم يجسّون آلاتهم

عازف رباب شاب:

لقد انقطع لي أحد الأوتار.

كبيرهم:

أكيد، أكيد، إلا في الرأس لا ينقطع لك وتر؛

مادمت لا تجهد أوتار دماغك بتاتاً، وترهقني
بالمقابل ودون هوادة بأسئلتك السّخيفة الحمقاء.

عازف الرباب: (في تملق)

أستفسرك أمراً واحداً فقط، وأنت صاحب الفكر
الثاقب والدقيق كشعرة قوس رباب،
وأدهانا جميعاً، فأنت الذي تقف بيننا سيّدا
كما يقف التشيللو بين الكمنجات
ـ ولو أنك غليظ الدويّ مرعد مثله ـ
قل لي بربك: لماذا هرع دون غونزالفو إلينا فزعا،
لما بادرنا بعزف الرقصة الأندلسية الجميلة وأوعز
إلينا بعزف رقصة الفاندانغو الإسبانية بديلا؟

كبيرهم: (بملامح العارف المستعلي)

بالطبع أعرف ذلك، لكنني لا أقول،
فذلك ممّا يلامس شؤون السّياسة.

(يبتعدون)

يسمع من داخل القصر صوت دون انريكه.

دون انريكه:

حامل مشعل واحد يكفيني.

حماري دياغو يضيء لي الطريق.

(متغزلاً)

وإني ألمح أمامي نجمتين لألاءتين

تقودانني بودّ، ألا وهما مقلتا دونيا كلارا!

أصوات مختلطة. تنغلق البوابة. دون انريكه ودون دياغو يتقدمان؛

هذا الأخير في زيّ خادم وبيده مشعل.

دون دياغو: (باعتزاز)

دعنا الآن نتبادل الأدوار، أيها السّيد المحترم،

فأنت الآن الخادم ـ والحمار.

دون انريكه: (يأخذ عنه المشعل)

لقد بذلت ما في وسعي، سيدي، فلا تؤاخذني.

دون دياغو: (بهمّة ووقار)

وشرفي أيها السّيد، لقد غدوت لي

غير الذي تعرّفت به في بادئ الأمر،

هناك في سجن بوانته دي سحورّو الرهيب.

دون انريكه: (مهدئا)

لا عليك سيّدي، أنا تلميذك المخلص.

دون دياغو:

تلميذي يتعيّن عليه أن يكون أبرع لسانا

لإغراء السّيدات الموسرات واستمالتهنّ.

فأيّ سخافة هذه تشبيهك بنجوم حقيرة؟

بالشمس ينبغي أن تقارن حسناء كتلك !

عليك بشعر شعرائنا وحفظه عن ظهر قلب،

وألن بالدّهان لسانك وقد بدا صدئاً

لما مكثت إلى جانب كلارا كالأخرس.

دون انريكه: (في شوق)

كنت مفتونا أتأملّ يديها في نصاعة الثلج !

دون دياغو: (ينفلت بالضحك)

لو قلت لي أن بريق حليها هو الذي

بهر بصرك وأخرس لسانك عن الكلام،

لما رأيت في صمتك المعسول عيباً.

(في سخرية وببطء)

لا بأس أن تفتنك يدا كلارا

إذا ملأهما الشيخ ـ بالذهب؛

حينذاك يطيب لي أن أشاركك الافتتان؛

افتتان ذهبيّ خالص رنّان !

بينما أترك لك وحدك متعة

تأمّل أناملها ناصعة البياض،

وساعدها البضّ الناعم،

ونسيج شرايينها في زرقة السّماء !

دون انريكه: (متقدا)

كفاك تهكما ! صحيح أنا أغازل ثروة الأب،

لكنني لا أنكر أن بهاء كلارا حرّك فيّ أشياء.

دون دياغو:

حاشاك يا غدير الروث أن يحرّكك أحد !

ما يضوع عن ذا الحراك لا يكون طيب العنبر.

لا تهدف إلى الصّميم عند العشق،

بل توقف عند السّطح فحسب !

الاحساسات أسوء معين عند العشق،

الكلمات وملامح الوجه والحركات هي الأجدر.

وإن هي لم تف بالحاجة ولم تبلغ المرام،

فالعون في زينة الخدود بما يموّه بالشباب،

وفي جوارب مدريدية تكوّر بطن السّاق،

وقمصان تشد الحزام وبطائن تنفخ الصّدر،

وما إلى ذلك من ذخيرة من لدن الخيّاط.

وإن أخفق هذا كذلك في تحقيق المرام،

فالحلّ إذن في أدوات تسلق الجدران ـ

(ينظر إليه بضحكة صفراء)

إنك تتذكر الوثائق التي صنعتها

بتوخيّ الخط العتيق والحبر الشاحب،

والتي افتعلت إتلافها في القصر،

حتى عثر عليها دون غونزلفو واستنتج ـ

(يقهقه)

نعم أيها السّيد، أنت مدين لي أن أصبحت

في مقام أمير؛ ـ فأدم لي الطاعة والانصياع.

لا تتكلم إلا حسبما لقنتك إياه.

تكلم كثيراً في شؤون الدّين والأخلاق.

أكشف في كلّ مناسبة عن آثار الجراح

التي خلفها لك الجلاد في السّجن،

زاعما أنها جراح مقدّسة تركتها

لك معارك في سبيل الحقّ والعقيدة؛

تكلم كثيراً في الجرأة والحماسة،

ولا تنس خصوصاً أن تبرم لحيتك وتعيد.

دون انريكه:

إني أنحني أمام دهائك يا سيّدي.

أمراً واحداً من حيلك البارعة لم أفهمه:

كيف أمكن لك إدماج القسّ في مخططك؟

دون دياغو:

القساوسة هم أيضاً من أهل الحرفة، سيّدي،

ورجال القداسة أصحاب مطامح مقدّسة،

ويحتاجون تبراً لشراء أقداح القداس،

ويحتاجون خمراً لجعلها تطفح به.

ألم تر كيف وفقت في خلط الأوراق المربحة؟

وناولتك منها ما يلزم، فربحت بورقة القلب

الأميرة، بينما ربحت الملك، الشيخ أباها،

باستعمال ورقة الصّليب المربحة.

وغداً تأتي اللعبة على الختام، وغداً يكتمل الفوز؛

حينئذ أقدّم لك التهاني وأبارك لك الزواج.

دون انريكه: (وهو ينظر إلى السّماء في خشوع)

الحمد لك والشكر يا أبتاه في العلاء!

دون دياغو:

أكيد أنه في العلاء، بعد أن تدلىّ متأرجحا

من ذروة مشنقة مدينة سان سلفدور.

(ينصرفان)

المنصور يبرز من الخفاء

المنصور:

وأخيراً فرّت الخفافيش المبرقشة والبوم.

لقد أوجع صفيرها السّمج مسمعي

وكاد جوارها أن يقطع عليّ النفس.

ويحك سليمة وطيور نحس كهذه تحلق حولك !

حمامة بيضاء أنت تحوم حولك الغربان السّود !

وردة جميلة مثلك تزحف حولك هذه الدّيدان...!

أهو سحر عقد عليك فأحبط لك كلّ عزيمة؟

هل أفل من مهجتك مشهد المنصور مستعطفا؟

أما من ذكريات عن حبّ المنصور

تنبلج من صدرك مع الزفرات؟

هناك في العلاء ألف رسول حبّ يطوف،

أمّنت كلّ منها ألف سلام محبة وغرام،

ومع كلّ سلام ومن ألف جرح حبّ

سال دمي الحامي في ألم عذب لذيذ.

ومع هذا لم يبلغ أيّ من هؤلاء
الرسل حبيبة قلبي سلامي الحارّ !
اخسأوا أيّها الرّسل السّفيهة،
يا نجوما في السّماء، إنك تبرقين
في فطنة ودهاء إلى تحت وتتبجّحين
بقدرتك على تسيير أقدار البشر. . . !
ولكنك عجزت عن إيصال سلامي -
بينما يوصل الحمام السّاذج بكلّ أمان
رسائل الرّعاة العاشقين في البيداء !
وكأني بأهل القصر قد أمّوا الأسرة،
شيئاً فشيئاً انطفأت الأنوار عن آخرها،
إلا نور أراه يشتعل خلف النافذة هناك؛
مازلت أتذكرها تلك النافذة، هناك تنام سليمة.
كم مرّة وقفت عندها ذات ليلة من ليالي
الصّيف الجميلة وجعلت عودي يرسل أحلى النغمات،
إلى أن تلوح الحبيبة على الشرفة وتهتف بكلمة عذبة.

(يسحب عوداً من تحت معطفه)

هاهو ذا العود القديم. الأغنية القديمة تهفو
بلحنها إلى ذهني؛ أوّد أن أرى أما يزال

للنغم السّاحر القديم تأثير كما في الماضي.

(يعزف ويغنّي)

نجيمات ذهبية تطلّ إلى أسفل،

تحدوها لوعة حنين العشق،

نويورات زاهية الألوان تعيد التحيّة،

وترنو حالمة إلى فوق.

القمر ينظر إلى تحت بلطف،

ويعكس صورته في مياه الجدول،

ومن لهفة حبه ينغمس فيه،

ويبرد لظاه في الماء.

حمامات بيضاء في لهفة الغرام،

تتقبل ساعة القيظ بالمناقير؛

ودودة وهاجة تسرع مشعة

كما للمعانقة إلى أنثاها[١].

---

(١) الدودة في اللغة الألمانية في صيغة المذكر.

الزهرة تنط مرحة والجدول يقفز
والنجمة تهوي في سرعة البرق،
وكل ما هناك يستفيق ويضحك ويغني.
فالحب قد أغدق على مملكتها.

صوت سليمة من داخل القصر:

أهي أضغاث أحلام تتلاعب بي،
فتعيد أنغاما حبيبة أليفة إلى مسمعي؟
أهو بعض الشياطين يريد أن يغويني
فيحاكي ماكراً صوت الصّديق العذب؟
أم هو شبح المنصور الميّت التائه،
يعاودني في دجى الليل ويموّه بي؟

المنصور:

إنه ليس حلم خادع يلعب بك،
ولا شيطان يروم أن يغويك،
ولا شبح المنصور الميت التائه،
بل هو المنصور ذاته، ابن عبد الله.
هو ذا قد عاد، ومازال يكنّ

حبّا حيّا في قلبه الحيّ.

تظهر سليمة على الشرفة وفي يدها قنديل[1]

سليمة:

سلام عليك يا المنصور ابن عبد الله،

سلام عليك في دنيا الأحياء !

لقد زعموا لنا من زمن أن المنصور

مات، ففاضت عينا سليمة بالدّمع

الصّامت ولم ينضب نبعه بتاتاً.

المنصور:

يالك من أنوار عذبة أيتها المقلتان في جمال البنفسج،

أخلصتا لي العهد وما زالتا لي وفيّة،

في حين تركتني روح سليمة ونسيتني. . . !

سليمة:

ما العينان سوى نافذة الرّوح الشفافة،

وما الدّمع إلا دم الرّوح الأبيض.

---

(١) إنه مشهد يوحي بالتأكيد بمسرحية «روميو وجوليات» لشكسبير.

المنصور:

لئن سال الدّم من روح المنصور،

عند لحد الأم ثم عند قبر الوالد،

فلا بدّ أن الرّوح تنضب الآن،

عند لحد حبّ سليمة.

سليمة:

يا للكلمات الفظيعة ويالها من أخبار أفظع!

إنها تغمد كالسّكاكين في أعماق صدري،

وبالمثل يجفّ الدّم من روح سليمة.

(تبكي)

المنصور:

لا تبكي سليمة... ! إن دموعك تقع

على قلبي كأنها قطرات نفط حامية.

لن يؤلمك كلامي منذ الآن أبدا...!

سأجلك كأنك لي قبلة مقدّسة،

تنكسر في حرمها شوكة رمح المنتقم

الآخذ بالثأر؛ وتنجو في أمنها الحمامة

والغزال من نبال الصيّاد الفتاكة؛

وتتعطل في جوارها يدا اللصّ الطمّاعة

عن الحراك، إلا للصّلاة وللابتهال.
أنت لي، سليمة، الكعبة المقدّسة؛
توهّمت أنني أقبّلك أنت حين لمس
فمي المتوهّج الحجر المقدس ـ
إنك عذبة في عذوبته، لكن باردة أيضاً مثله !

سليمة:

إن كنت قبلتك المقدّسة فاكسر
شوكة رماح كلماتك الحادّة،
ودع في كنانتها النبال الفتاكة
التي تصيب عبر الهواء صميم فؤادي،
ولا تطبق كفيك كما للصّلاة،
حتى تنعم أكثر بما فيه لوعتي.
كفاني ألما نعي عبد الله وفاطمة؛
لقد أحببتهما كما لو كانا لي أبوين،
وكان يحلو لكليهما أن يدعوني «يا بنيّتي !»
أخبرني بربّك كيف ماتت فاطمة، أمّنا؟

المنصور:

كانت تحتضر ممدّة على فراش الموت،
وكنت جاثياً على يسارها أبكي في سكون،

وعلى يمينها وقف عبد الله جامداً صامتاً،

بينما كان ملاك الموت يطوف جليّا

فوق رأسها، رافعا سعفة السّلام.

شئت أن أفتكها من هذا الملاك،

فأحكمت في فزع القبض على يدها.

لكن مثلما تنسكب السّاعة الترابية

في سكون مطرد، انسكبت الحياة من يد أمّي.

وتناوب على محيّاها الشاحب

ابتسام وألم؛ ولما انحنيت عليها

في سكون، تنهّدت من الأعماق وقالت:

«احمل هذه القبلة إلى سليمة».

وعند سماع هذا الاسم زفر عبد الله

كسبع فلاة أصابته طعنة قاتلة.

توقفت الأم عن الكلام، في حين أبقت

يدها الباردة كالثلج في يدي كأنها تأخذ عهداً.

سليمة:

يا أمّاه، يا فاطمة، لقد أحببت حتىّ

ساعة الموت ابنتك المسكينة!

أما عبد الله فإنه أدام لي البغض

إلى أن صار إلى مأواه الدامس.

المنصور:

إنه لم يحمل البغض معه إلى القبر.

رغم أنه كان حالما يسمع صدفة

اسم عليّ أو سليمة تثور في صدره

عاصفة هوجاء، فيكفهرّ جبينه

كما لو تلبدت عليه الغيوم،

وتتقد عيناه شرراً كأنه وميض البرق،

وينفجر من فمه سيل عارم من اللعن والسّباب.

لكن ذات مرة خرّ أبي على إثر عاصفة كهذه

واستسلم للسّبات العميق منهكاً مرهقاً.

مكثت إلى جنبه انتظر أن يستفيق.

ويا لدهشتي ! حين رفع جفنيه لاح

في نظره ودّ ووداعة عوض بريق الغيظ؛

وارتسمت على شفتيه ابتسامة هنيئة،

عوض تشنجات الألم الجنوني؛

وعوض اللعن الماحق من جديد

خاطبني قائلاً بصوت هادئ رخيم:

«إنها مشيئة أمك، وليس لي أن أخالفها في ما أرادت،

لذا اذهب يا ابني، اركب البحر وعد إلى الأندلس؛

اقصد قصر عليّ وابحث عن سليمة، وقل لها» -

وهنا حضر ملاك المنية، وفصل

في الحين بين حياة عبد الله وبين خطابه.

(استراحة)

وأودعته مثواه الأخير لكن على غير ما اعتاد المسلمون،

بجعل الرأس قبلة مكة، بل طرحته متوجّها

وجهة غرناطة، مثلما تمنىّ وأوصى ذات يوم.

ومازال في وضعه بعينين شاخصتين

في جماد، لا تنفكان تلاحقاني بالنظر.

(يلتفت برفق إلى الوراء)

أيها المرحوم أبي،

لقد رأيتني أشقّ طريقي عبر رمال الصّحراء،

ثم رأيتني أركب البحر إلى ضفاف الأندلس،

ثم رأيتني أسرع الخطى إلى قصر عليّ،

وهاأنت تراني الآن هنا -

هاأنا أقف مع سليمة،

تكلمي يا روح عبد الله، ماذا ينبغي أن أقول؟

(شكل آدمي متزر معطفاً أسود يبرز)

الشكل الآدمي:

قل لها: تعالي سليمة انزلي

من قصرك المرمري وحجراتك المذهبّة،

واقفزي على ظهر جواد المنصور الأصيل.

إلى هناك حيث ينعش النخل بظلاله الرطبة،

ويعبق البخور متضوّعا من التربة المقدسة،

ويرعى الرعاة الخرفان وهم ينشدون،

إلى هناك حيث تتبوأ خيمة من الكتان ناصعة البياض،

وترتع الغزلان ذات الأعين الفطنة الذكيّة،

وترعى الجمال ذات الرّقاب المديدة،

حيث صبايا سود مكللة بأكاليل الزهر،

يقفن على مدخل الخيمة المزدان الجميل،

ويترقبن سيدتهنّ بكل شوق ـ أيا سليمة،

إلى هناك اهربي صحبة المنصور.

حديقة غنّاء أمام قصر علي تضيئها شمس الصّباح. سليمة راكعة في صلاة أمام صورة المسيح. تنهض في تؤدّة.

سليمة:

رغم هذا لم ينجل عن هذا الصّدر غمّه !

مازال قلبي يرتعش. أمن شدة الفرح

بسلامة من بكيت ظنا أنه من الأموات؟

لا، فالفرحة لا تجوز، إنها لا تتفق

مع قسمي المقدّس، مع وعدي

الذي قطعته أمام القسّ رئيس الدّير.

عاد المنصور ! ما عسى أبي يفعل إن علم؟

أيصبّ غيظه إزاء العدّو اللدود على الابن؟

فمازال حقده لم يخمد؛ ما زالت تربض بصدره

عفاريت لئيمة تمرق هائجة كلما طرق اسم عبد الله سمعه.

ماذا جنى عليه عبد الله يا ترى؟ من طبع أبي لين العريكة.

كم مرّة سمعته في الليالي يذرع أرجاء القصر

ويصيح: «يا عبد الله تعال، هيا نتبارز، الدّم ينادي الدّم» -

ويحك يا المنصور، الويل لك إن رآك، اهرب بسرعة !

إنّ لفي عداوة الآباء وضغينتهم هلاك الأبناء.

دعني أسترك بلحافي كي لا يقع عليك بصر أبي.

إني أراك في خطر وشيك، فتستفيق

تلك الاحساسات التي كانت تساورني،

يوم كنا طفلين نلهو ووعد الزواج يربط بيننا؛
لما كنت تتسلق شجرة التفاح هشة الأغصان،
فأترجاك باكية أن تنزل خوفا عليك من أذى السّقوط.
(تفكر)
«مات المنصور»، هكذا قال أناس تعساء،
وصدّق القلب الحزين النبأ الأتعس،
وغدت سليمة خطيبة الرّجل الغريب!
دعني أحبك حبّ الأخت للشقيق؛
كن لي أخاً يا منصور أيّها العزيز!
(تبصر إلى أسفل وتنطق في زفرة: «المنصور!»)

في الأثناء يظهر المنصور خلف سليمة ويدنو منها دون أن تعي ويضع يديه على كتفيها ويقول مبتسماً ومحاكياً إياها: «سليمة!»

سليمة: (تلتفت منزعجة وتحدّق فيه مليّاً).
إنك تغيّرت كثيراً يا المنصور.
إنك تكاد تبدو الآن رجلاً مكتمل الرّجولة،
بيد أنك لم تتخلّ عن عادات الصّبا المتهوّرة،
وهاأنت من جديد تزعجني كما كنت تفعل،

حين كنت أنهمك في محاورة زهوري خفية.

المنصور: (مبتسما في مرح)

قل لي يا حبيبتي الحسناء، أي زهرة

تكنىّ اليوم بـ«المنصور»؟ انه اسم كئيب

لا تناسبه إلا أزهار الحزن والرّثاء !

سليمة:

قل لي أولا أيها المغرم المتكدّر المتوحّش،

من كان الهاتف الأسود ليلة البارحة؟

المنصور:

إنه صديق قديم وأنت تعرفينه جيّداً.

إنه الشيخ حسن، تحيّر من أجلي

واقتفى أثري كما يفعل الحيوان الأليف.

دعي عنك يا حبّي العذب هذه الملامح القانطة،

والغشاء الأسود الذي يعكر لك صفو النظر،

مثلما تتجرّد الفراشة من شرنقتها

لتطلق جناحيها القشيبين الوضيئين،

ومثلما فعلت الأرض فخلعت عنها الحلكة

التي غشي بها الليل رأسها الجميل.

وهاهي الشمس تنعطف نحوها مقبّلة إيّاها،

فيستفيق في الغاب النضر نشيد عذب،

وتترقرق نافورة المياه وتنثر درراً ولآلي،

وتسكب الزهيرات الحلوة دمع الفرح والحبور ـ

إن ضياء النهار لعصى سحريّة،

تعيد الحياة إلى الأزاهير والأناشيد كلها،

وتزيل غمّ الليل حتىَ عن روح المنصور ذاته.

سليمة:

لا تثق بالأزهار التي تشير إليك بالمجيء،

لا تثق بالأناشيد التي تجذبك إلى هاهنا،

إنما هي تشير إلى الموت وإليه تجذب.

المنصور:

أبداً، لن أريم حتىَ عن الموت.

يا لسعادتي ويا لأنسي في هذا المكان الأليف !

أحلام الصّبا الذهبية تهفو من جديد وتتصاعد !

هنا البستان حيث كان يحلو لي المرح،

هنا الأزهار المشرقة التي كانت تومئ إليّ بلطف،

هنا يغرّد الحسّون الذي كان يحيّيني في الصّباح ـ

لكن أخبريني، حبيبتي، إني لا أرى الرّيحانة

حيث كانت، بل وعوضا عنها شجرة سرو؟

سليمة:

ماتت الرّيحانة وعلى قبرها

غرسوا شجرة السّرو الكئيبة.

المنصور:

مازال عريش الياسمين وزهر العسل،

حيث كنا نقصّ الحكايات الشيقة،

عن جنون المجنون وشوق ليلى،

عن عشقهما المتبادل وموتهما سوياً.

مازالت شجرة التين الحبيبة حيث عرفتها،

وقد كنت بثمرها تكافئين حكاياتي؛

مازال هنا كذلك الكرم والبطيخ،

وكم كان ينعشنا ويروينا إن طال بنا الهذيان.

لكن قولي لي يا حبّي، إني لا أرى الرمّانة

التي كان البلبل يرتكز عليها ويشتكي

مغرداً لوعة اشتياقه للوردة الحمراء.

سليمة:

لقد أودت العاصفة بوريقات الوردة الحمراء،

ومات البلبل وتلاشى نشيده، وهوت فؤوس

قاسية على جذع الرمّانة اليانعة فاجتثته.

المنصور:

ما أسعدني هنا ! بهذه التربة الحبيبة

تلتحم رجلي، وكأنّ قيداً خفيّاً يعقلها بها.

أنا أسير هذه الحلقات الحبيبة

التي عقدتها حولي، يا حوريتي الفتانة؛

روائح أليفة عبقة كالبلسم تتضوّع حوالي،

أسمع الأزهار تتحدث والأشجار تنشد الأناشيد،

صور مألوفة تتقافز وتتواثب من كتل الأغراس -

(ينتبه إلى صورة المسيح ويندهش)

لكن قولي لي يا حبّي، أرى هناك صورة غريبة،

ترنو إليّ بلطف، وبحزن أيضاً في ذات الحين،

فتذرف دمعة مريرة في قدح فرحتي الذهبي البديع.

سليمة:

أو لا تعرف هذه الصّورة المقدّسة يا المنصور؟

ألم تتمثل لك أبداً في أحلامك الهنيئة؟

ألم تعترضك قط في بعض مسالكك؟

تذكر مليّاً يا شقيقي التائه !

المنصور:

بلى، اعترضت الصّورة سبيلي،

يوم عدت إلى أرض الأندلس.

على يسار الطريق المؤدية إلى خرخاس

كان هناك مسجد يشمخ فاخراً بديعاً.

ولكن عوض هتاف المؤذن بأن

«لا اله إلا الله، محمد رسول الله !»

دوى من الصومعة قرع نواقيس يصمّ الأذن[1]،

وعند المدخل داهمني سيل دافق جبّار

من عزف الأرغن، يتعالى وقعه ويموج،

وكأنه قدر سحريّ يغلي متبخراً فوّاراً.

وكأنما بأذرع مديدة جذبتني الإيقاعات الجبّارة

إلى الداخل والتوت حول صدري كالثعابين،

وضغطت على صدري ولدغتني،

وشعرت وكأنّ جبل قاف ناء على صدري،

وجعل الطائر «سمورغ» ينقر قلبي.

وداخل البيت صدح ترنيم مبحوح،

---

(١) وكأننا هنا بالشاعر الأندلسي ابن الأبار في قوله: يا للمساجد عادت للعدى بيعا وللنداء غدا أثناءها جرساً، أو بأبي البقاء الرندي في مرثيته الشهيرة حيث يقول:

حيث المساجد قد صارت كنائس … ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة … حتى المنابر ترثي وهي عيدان

كنشيد مأتم، يرسله رجال مظهرهم غريب،
صارمو الملامح صلع الرّؤوس،
يرتدون عباءات ذات زهور؛
وكذلك نشيد رقيق لصبية في أزياء بيضاء حمراء،
تراهم يهزون أحيانا الجلاجل الرّنانة،
ويأرجحون المباخر المدخنة اللمّاعة.
وكانت أنوار لا تحصى تعكس شعاعها الخافت
على الفيض من الأشياء المذهبّة والبرّاقة،
وحيثما وقع بصري وفي كلّ كوّة واجهتني
نفس هذه الصّورة وأومأت في اتجاهي.
وعلى الإطلاق بدا محيا الرّجل على الصّورة
شاحباً شحوب الألم وجدّ حزين.
تارة نراه عرضة لضرب مبرح بالسّياط،
وتارة يرزح تحت ثقل صليب؛
هنا أناس يبصقون باشمئزاز على وجهه،
وهناك يكللون هامته بالأشواك،
ثم هناك يدقونه على الصّليب ويرشقون جنبيه
بالرّماح الحادة. دماء، دماء، يالها من دماء
تنزف من كلّ صورة. ثم أني شاهدت

امرأة حزينة تحتضن جثمان المصلوب،

الهزيل المصفرّ والعاري، الملطخ بدم مسوّد ـ

وهنا سمعت صوتاً صادعاً قاطعاً يقول:

«إنه دمه»، ولما صوّبت إليه نظري أبصرت

(مرتهباً)

الرجل الذي كان بصدد تجرّع قدح.

(استراحة)

سليمة:

إنك وطأت بيت المحبّة يا منصور،

بيد أن العمى أثقل جفنيك.

لعلك افتقدت البصيص المرح

الذي يطفو على معابد الوثنية البائدة،

ولم تجد رتابة الحياة العادية التي تقبع

في بيوت صلاة المسلمين ثقيلة الهواء.

إنه بيت أفضل وأجدّ، ذلك الذي اصطفته

المحبّة لتجعل منه مسكناً لها في هذه الدّنيا.

في كنفه يصبح الأطفال راشدين،

ويستعيد فيه الرّاشدون الطفولة.

في هذا البيت يصبح الفقير غنياً،

وينعم الغنيّ في الفقر.

في هذا البيت يحزن من كان في طرب،

ويجد السّرور من كان مهموما.

إذ عندما ظهرت على سطح الأرض المحبّة،

كانت هي نفسها طفلاً مسكيناً حزيناً.

معلف إسطبل ضيّق كان لها المهد،

ومجرّد تبن أصفر وسادة للرأس.

وأجبرت على الفرار كضبي وديع،

تلاحقها حماقة البشر وزيغ أهل العرفان.

وبيعت المحبة بالمال ولاقت الخيانة،

وعانت الاستهزاء وامتحنت بالتنكيل فالصّلب -

لكن بفضل زفرات موت المحبّة السّبع،

انكسرت الأغلاق السّبعة التي

أحكمها الشيطان علي باب السّماء،

وكما انفتحت جراح المحبّة السّبعة،

فتحت السّماوات السّبع ثانية

ودخلها المذنبون والأتقياء.

تلك هي المحبّة، ما رأت عينك جثة،

في حضن الأمومة لتلك المرأة الحزينة.

وحقي إن بشريّة بأسرها بوسعها
أن تتدفأ بحرارة تلك الجثة الجامدة.
من ذلك الدّم انبثقت زهور أجمل
مما أزهرت رياض الرّشيد[١]،
ومن عيني تلك المرأة الحزينة
يقطر بأعجوبة ماء ورد أعذب
مما يستخلص من ورد شيراز بأسره[٢].
أنت أيضاً يا المنصور بن عبد الله تجوز لك
الحظوة من ذلك الجسد الخالد والدّم الخالد؛
أنت أيضاً بوسعك مجالسة الملائكة على الخوان
وأن تنعم بالخبز الربّاني والخمر الربّاني؛
أنت أيضاً بوسعك أن تسكن ببهو الصّالحين،
فيحميك من سلطة الشيطان الجهنميّة
بحقّ الضيافة الأبدية عيسى المسيح،

---

(١) لا شك أن هاينه يقصد به هارون الرشيد وقد ألفه شخصية متميزة منذ الصغر عبر حكايات ألف ليلة وليلة.

(٢) اشتهرت شيراز وورودها في تلك الفترة بفضل المجهودات التي قام بها المستشرق النمساوي يوزف فون هامر بورغشتال للتعريف بالأدب الفارسي، ولا سيما ترجمته لديوان محمد شمس الدين الحافظ الشيرازي، الذي ألهم الشاعر الألماني غوته لتأليف عمله المشهور «الديوان الشرقي للشاعر الغربي» الذي صدر سنة ١٨١٩ أي زمن نشأة «المنصور».

إن أنت استسغت «خبزه وخمره».

المنصور:

إنك يا سليمة نطقت بتلك اللفظة

التي تخلق العوالم وتجمع بين العوالم؛

نطقت بالكلمة العظمى: «المحبّة!»

فردّدها ألف ملاك منشدين في تهليل،

وراج صداها عالياً في رحاب السّماء؛

نطقت بها فتقوّست هناك فوق السّحب

في الأعالي وتشكلت قبة كاتدرائية منيفة،

وانبعث عن شجر الدردار حفيف كعزف الأرغون،

وهزجت العصافير أناشيد الصّلوات،

وضاعت من صفحة الأرض نفحات من البخور العطر،

وتكوّم عشب الأزهار ليشكل المذبح -

واستحالت الأرض قاطبة كنيسة للمحبّة.

سليمة:

الأرض بمثابة «جلجلة» فسيحة كبيرة،

لئن تنتصر فيها المحبّة، فإنها تستنزف دمها أيضا،

المنصور:

آه سليمة، لا تضفري من الرّيحان إكليل موت،

ولا تئدي الحبّ في لحف المآتم.

كاهنة الحبّ أنت يا سليمة،

في عقر صدرك يأوي الحبّ،

ومن نوافذ عينيك الصّافية يطلّ،

ومن فمك العذب يهفهف نفسه ـ

عليك أيتها الوسائد القرمزية الناعمة،

عليك أيتها الشفاه اللطيفة يتربّع الحبّ ملكاً،

وعليك تروم نفس المنصور أن تضطجع ـ

ويحك، ألا تسمع كلمات فاطمة الأخيرة:

«احمل هذه القبلة إلى سليمة ابنتي». ـ

(يطيلان النظر أحدهما إلى الآخر في حنان. يقبلان أحدهما الآخر قبلة «رسمية»)

سليمة:

إني تقبلت قبلة الموت من فاطمة،

فخذ بالمقابل قبلة الحياة من لدن المسيح.

المنصور:

إنه نفس الحبّ ما ترشفت من

قدح حافته ياقوت أحمر؛

من نبع لظى كرعت إكسيرا

يسري حامياً في عروقي،

فينعش لي الفؤاد ويحرقه.

(يلفها بذراعيه)

لن أتركك يا سليمة، لا، أبداً!

حتى إذا فتحت أمامي أبهاء الله الذهبية،

وأشارت لي الحوريات بالعيون السّود،

فلن أتخلى عنك، سألازم جنبك،

واحكم القبض على جسمك الفتان؛

سماؤك يا سليمة، سماؤك فقط،

لتكن هي سماء المنصور، والهك أنت،

اله المنصور، وصليب سليمة،

كنز المنصور، ومسيحك

هو منقذ المنصور أيضا،

وفي المعبد حيث تصليّ سليمة

سأقيم أنا أيضاً صلواتي.

إني أسبح هنيئاً وكأني في لجّة الحبّ،

تكتنفني أنغام جنك ناعمة عذبة؛

الأشجار ترقص في حلقات عجيبة؛

ملائكة صغار تسكب باتجاهي في مزاح لطيف

سيولاً من شعاع الشمس ومسحوق الزهور؛ -
أبْهة السّماء الساكنة مفتوحة أمامي؛
أجنحة ذهبية وضاءة تحملني هناك إلى العلاء،
إلى السّعادة الأبدية ! -

(تسمع في البعد دقات أجراس وتراتيل كنائسية)

سليمة: (وهي تتقهقر منذعرة)

رحماك عيسى ابن مريم !

المنصور:

أيّ صوت حالك هذا مزق اللحاف الذهبي الرهيف
الذي نسجته حولي أحلام ناعمة وغمرتني به؟
أراك فجأة تمتقعين يا حبّي؛ وكأني
بوريدتي تنقلب زنبقة ناصعة البياض -
أخبريني، حبيبتي، هل أنك رأيت الموت،
وقد ظهر خفياً ليفرق بيننا؟

سليمة:

الموت لا يفرق، الموت يجمع الشمل،
الحياة هي التي ترغمنا على الفراق.
أتسمع يا المنصور ماذا تهمس الأجراس؟

إنها تهمس في قرع أصمّ معلنة:

(تحجب نفسها)

«ستزف سليمة اليوم إلى رجل ليس هو المنصور».

(استراحة)

المنصور:

إذن كلّ ما فعلت أنك نفخت في قلبي

سمك الذعاف يا ملكة الأفاعي !

من داء هذا اللفح السّام تذبل الأزهار حولنا،

ويردى ماء النبع الفوّار دماً دافقاً،

ويهوي الطير الخفاق ميتاً من الأعالي.

هكذا أغويتني، يا غادرة، باللحن السّاحر،

وحشرتني في سرداب التعذيب

الذي تسمينه كنيسة، وصلبتني على صليب ربّك،

وحركت بنشاط حبال النواقيس،

وعزفت بالأرغون لكي لا يسمع

ابتهالي العالي بدعاء التوبة إلى الله والاستنجاد !

لقد استهويتني، يا حوريّة السّوء،

إلى عربتك الصدفية التي تجرّها الحمامات،

استهويتني عالياً إلى عنان السّحاب،

لتدفعني فجأة إلى قاع الحضيض.
إنني أسمع في سقوطي قهقهتك السّاخرة،
إني أرى وأنا أهوي كيف تنقلب
عربتك السحرية نعشا ذا عجلات من لهب،
وأرى حمامك يمتسخ ويصير تنينا،
وأراك تقود بعنان أسود من الثعابين -
وأنا أهوي مرعداً باللعن الرّهيب،
إلى أسفل وأسفل حتىَ قاع الجحيم،
فترتعب الشياطين ذاتها وتمتقع،
لهول لعني المتفجر ومظهري الجنوني.
اغربي ! اغربي عني ! مازلت أحتفظ بلعنة
لو أطلقتها لشحب وجه إبليس ذاته،
وانكسفت الشمس من شدة الذعر،
وزحف الأموات مرتجفين من قبورهم،
وامتسخ البشر والحيوان والنبت صخراً.
(ينسحب هائجاً)

(ترتمي سليمة، بعد أن ظلت إلى حدّ الآن جامدة مكانها محتجبة، أمام صورة المسيح. سرب من الرهبان يمرّون منشدين نشيداً دينياً وحاملين رايات كنائسية وصور القديسين).

مشهد غابة

كورس:

إنه بلد جميل، إسبانيا الجميلة،

حديقة رحبة غناء تزهو فيها الأزهار

والبرتقال والريحان ـ ولكن أجمل منها

كانت مدن المسلمين تزهو وتشمخ في بهاء،

وحضارتهم النبيلة التي أنبتها فيما مضى

طارق بيد قويّة على الأرض الإسبانية.

ومن جراء أحداث شتىّ ازدهرت باكرا

الدولة الفتية، فنمت وأشعّت فاخرة

وتجاوزت بهاء الوطن الأمّ شعاعا أو كادت.

فحين فرّ آخر الأمويين ناجياً بروحه

من الوليمة التي أقامها العبّاسيّ الغادر

ساخراً بأكداس جثث الأمويين الدامية،

حين فرّ عبد الرّحمان إلى إسبانيا،

والتفّ مسلمون شجعان في وفاء حول

هذا الفنن الأخير من السّلالة الحاكمة القديمة،

حينذاك انفصل مسلم إسبانيا في عداء

عن أخيه في الدّين بالمشرق،

وانقطع الحبل الذي كان يصل بعيدا

من إسبانيا عبر البحر إلى دمشق،

ليعقد هناك بكرسيّ الخلافة.

وفي قصور قرطبة الفاخرة هبّ نفس

أصفى ممّا في خدور المشرق الخانقة.

فحيث كانت كتابة فظة تكتسح الجدران،

تعالت الآن في التواء متشابك لطيف

أشكال بديعة غزيرة من النبات والحيوان؛

وحيث كانت طبول ودفوف وحدها تصخب،

رنّ الآن بين عزف القيثار الناعم

غناء وجداني، نشيد «الرومنثيرو» العذب؛

وحيث كان السّيد الجلف يرغم بنظرة صارمة

الجارية على الرّضوخ لشهوته ورغباته،

رفعت الآن المرأة رأسها سيّدة،

ولينت بيد لطيفة من خشونة

طباع المسلمين القديمة وتقاليدهم،
وأينع الجميل حيث ساد الجمال.
فنون وعلوم وفتوة وغزل،
تلك هي الزهرات التي رعتها
يد عبد الرحمان الملوكية.
وأقبل من بيزنطة رجال ومعهم
اللفائف المنطوية على حكمة القدامى؛
وانبثقت حكمة جديدة عن القديمة؛
ومن كلّ الأمصار توافدت على قرطبة
حشود من الطلاب الشغوفين بالمعرفة،
ليتعلموا هنا كيف تقاس الكواكب،
وكيف تفسّر ألغاز هذه الحياة وأسرارها[١].
وسقطت قرطبة وعلا شأن غرناطة
وتبوأت بدورها مركز العظمة الأندلسيّة.
ومازالت إلى اليوم قصائد زاهرة فاخرة
تتغنىَ بأبّهة غرناطة، بألعاب الفروسيّة فيها،

(١) يذكر هاينه في بعض أعماله اللاحقة من بين من توافد على قرطبة الأموية من طلاب العلم الراهب غربرت Gerbert d'Aurillac الذي ارتقى إلى رتبة بابا باسم سلفستر الثاني Sylvester II.

وبحسن أخلاق المتبارزين وحلم الفائزين،
بلهفة قلوب السّيدات الكريمات،
وهنّ يشاهدن تلاحم الفرسان من صفهنّ.
ولكنه كان صراع فروسية أكثر جدّ
ذلك الذي سقطت فيه غرناطة السّاطعة،
ولم يكن من دلائل المروّة حين تحايل المنتصر
ونقض العهد الذي وعد به حرية العقيدة،
وفرض على المغلوب الخيار بين التنصّر
أو ترك إسبانيا والهجرة إلى أفريقية.
حينئذ اعتنق عليّ دين المسيح. إذ أبت نفسه
العودة إلى بلاد البربر الموحشة.
لقد شدته حضارة الأندلس الزاهرة،
بآدابها المتميزة وفنونها الجميلة وعلومها.
وشدته الخشية على سليمة، تلك الزهرة الرقيقة
التي كانت تذبل في قفص النسّاء الذي ينتظرها،
هناك بالمشرق المتزمّت، لو انساقت إليه.
كما شدّه حبّ الوطن وتعلقه بالأندلس الجميل الحبيب.
ولكن أهمّ ما شدّه حلم عظيم جميل،
في بدايته اضطراب وفوضى وعواصف شمالية

وقرع سلاح، يتخلله هتاف ينادي:

«كيروغه وريياغو !»[1] وياله من نداء !

وسالت جداول حمراء، وانهارت سجون عقائدية

وحصون أسياد متجبّرين وسط اللهب والدّخان،

وفي النهاية علت من اللهب المستعر والدّخان

الكلمة الأبدية، الأصيلة الخالصة،

تشعّ في هالة النصر حمراء وردية.

المنصور يترنح ساهياً جيئة وذهاباً

المنصور: (فاقد العواطف مريراً)

في الخرافات القديمة قصور مفعمة بالذهب،

فيها الجنوك تعزف والعذارى الفاتنات ترقص

والخدم في لباس الحرير الفاخر يرفلون، وأزهار

الياسمين والريحان والورد بشذاها تعبق -

ولكن حسبك لفظة سحرية واحدة تنطق،

فيختفي البهاء كله في لمحة ويندثر،

---

(١) يربط هنا هاينه بأحداث معاصرة له بإسبانيا فالمذكورين، أنطونيو كيروغه ورافائيل دال رياغو ضابطان في الجيش الإسباني قاما في جانفي ١٨٢٠ بتمرد لإعلان دستور عصري.

ولا يبقى سوى أنقاض خراب

وطيور الظلام الناعقة والوحل العفن.

وبالمثل أبطلت أنا بكلمة واحدة

سحر الطبيعة الزاهرة كلها.

وهاهي الآن تجثو هامدة جامدة فاقدة الحياة،

كجثمان مبهرج مبرقش لملك متوفىً،

طلي شدقاه بالمسحوق الأحمر،

وتشنجت قبضته على الصّولجان.

في حين بدت شفتاه صفراوين ذابلتين،

وقد سهي عن طليهما بالأحمر بالمثل،

وتلاعبت فئران حول أنف الملك، وبوقاحة

استهترت بالصّولجان الذهبيّ الهائل.

إنه دمنا ذاته الذي يسري إلى العين،

هو الذي يضفي على الورود كلها

لونها الأحمر الخلاب، وعلى خدود

العذارى الفاتنات وغمائم أمسيات الصّيف،

وما إلى ذلك من بهرج يبهرنا ويستهوينا.

إني أزحت عنيّ النظارات الحمر ـ

فانظر الآن ! يالها من بدعة رديئة الصنع هذه الدنيا !

الطيور تسيء الغناء والأشجار تتأوّه
وتئنّ كالعجائز والشمس تلقي
لا شعاعاً دافئاً بل ظلالاً باردة فحسب،
والبنفسج هناك يقهقه بلا حياء كالعاهرات،
والزنابق والقرنفل والبوصير خلع عنه
ثياب الأعياد ولبس الرداء العادي الحقير.
ولكن ما بلغ شيئاً من التغيير ما بلغني.
لم أعد سوى هيكل بارز العظام؛
وما أتفوّه به ليس إلا هبّة ريح باردة
تسري بين ضلوعي الجافة فترتجف.
وهجر رأسي ساكنه الفطن الصّغير
وعشش العنكبوت في جمجمتي
لينسج خيوطه في راحة وأمان.
وصار بكائي باطناً لا ينفذ،
إذ سلبت منيّ العينان في نعاسي،
وأثبتت لي جمرتا نار وهّاجة بديلاً.
يا أيّها الملاك المحلق، يا من روت لي عنك
الأمة في سالف الزمان أنك تحسب
كل دمعة تذرفها عيني بدقة وثبات،

هاهي مهمتك انتهت، بعد أن أضناك

شأني، يا عدّاد الدّموع، يا أيّها المسكين !

أما أخطأت العدّ قط؟ وهل استوفيت الحصي كله؟

لا شك أنكّ متعب، وأنا كذلك شديد التعب،

وقلبي أيضاً متعب لفرط ما خفق،

فلا بدّ لنا الآن أن نستريح.

(يستلقي على الأرض مستنداً إلى جذع شجرة قستل)

إني متعب،

ومريض، بل أشدّ مرضا من مريض،

فهل من مرض أقسى من الحياة !

ولا دواء له سوى الموت. أشدّ الأدوية مرارة،

لكنها الدواء الحاسم الأخير، كما إنه في

متناول اليد في كلّ مكان، وبأرفق الأثمان.

(يستلّ خنجراً)

يا دواء من حديد، أراك تنظر إليّ بارتياب.

هل لك أن تعينني؟

يظهر حسن ويقترب خلسة

حسن:

المعين هو الله!

المنصور: (لا يتفطن إليه، يواصل مناجاة الخنجر)

وكأني بك تهمس باسم الله وأمور من هذا القبيل؛

فهل يحتاج الخنجر إلى كلمة حادّة،

ليمزق لي القلب في أعماق صدري؟

حسن:

ما يفعل الله هو نعم الصنيع.

المنصور: (لا يزال يحاور الخنجر)

أه، أه، أه! وكأنه يتكلف الوعظ، هذا الخنجر!

أولى بك أن تصمت، ففي الصّمت

تكون أفصح من أي واعظ بخطبة مستفيضة.

حسن: (يتنهّد)

يا المنصور بن عبد الله، ما أنت قادم عليه؟

المنصور: (يبصر الحسن)

أه، أه! أنت الذي تكلمت أيها الشيء القائم على رجلين!

أتلتحي بلحية حسن وتحمل عينيه؟

أو هل أنك الحسن ذاته؟ جميل جدّا.

جئت للوداع. أستودعك الله!

إني على أهبة الرّحيل !

(يريه الخنجر)

انظر، هذا الجسر الضّيق يوصل من وطن الحزن

إلى وطن الانشراح. صحيح أنّ هناك في المدخل

عملاقاً أسود كالفحم يقف شاهراً سيفاً برّاقاً ـ

إنه يلوح للجبان الرّعديد مرعباً، أما الشجاع

فيعبر بأمان ويلج إلى بلد الانشراح.

نعم، هنالك المسّرة الحقيقية، أو قل إنها،

والمعنى واحد، الرّاحة الحقيقية.

ما ثمة هناك من خنفس مزعج يطرش لك السمع،

ولا بعوضة لاذعة هناك تدغدغ لك الأنف،

ولا ضياء ساطع مبهر يضيق لك البصر؛

ولا قيظ يضنيك ولا صقيع ولا جوع ولا ظمأ؛

أمّا أفضل ما هناك، أن يباح لك النوم على الدوام،

على مدى النهار وطوال الليل أيضا.

حسن:

كلا يا ابن عبد الله، الجبان هو الضعيف

الذي لا عزيمة له لمجابهة الألم، فيوليه الظهر

ويترك مذعوراً حلبة صراع الحياة هارباً،

هيّا انهض وقف يا المنصور !

المنصور: (يرفع ثمرة قستل من على الأرض)

بأية صفة سقطت هذه الثمرة على الأرض؟

حسن:

بفعل الديدان والرّياح؛ الدّود يقضم الألياف،

فيهون على الرّياح أن تلقى بالثمرة إلى أسفل.

المنصور:

فهل من عجب أن يقع الإنسان، أضعف الثمار،

كذلك على الأرض، إذا انبرت الدّودة،

(يشير إلى قلبه)

أضرّ الديدان، تقضم فيه طاقة الحياة قضما،

وترجّ رياح اليأس الهوجاء كيانه رجّا؟

حسن:

انهض، هيّا انهض يا المنصور ! الدّودة وحدها

تروم التلوي على سطح الأرض، أمّا النسر

فمن طبعه أن يرنو خفاقاً إلى نور الشمس الأبديّ.

المنصور:

يكفيك أن تستأصل للنسر جناحيه القويّين

ليستحيل دودة ويزحف على الأرض.

لقد قصّ مني مقصّ الضّجر من زمان

الجناحين الذهبيين اللذين ارتفعا بي سالفاً

في عهد الصّبا إلى السّماء وأعلى القمم.

حسن:

ويحك، أرني صخرة جامدة صمّاء،

وقل لي: هي المنصور! لأصدقك.

لكنك لست أنت، هذا الذي يقبع فاقد العزيمة،

ويرى بعينين شاخصتين محملقتين

كيف يلقى الذلّ والإهانة على عاتق إخوانه،

كيف تدوس وقاحة الأسبان بصلف

كرامة أعز أبناء المسلمين وأشرفهم،

كيف يخدعون ويسلبون ويجبرون تحت

لذع السّياط على ترك أوطانهم عراة بائسين.

أنت لست المنصور، وإلا لدهم مسمعك

تضرّع الشيوخ وأنين النساء، وقهقهة الأسبان

السّاخرة، وصيحات الفزع التي يطلقها الضحايا

الأشراف من أعلى أكوام الحطب ذات اللهيب اللافح.

المنصور:

صدقني أني أنا. إنّي أرى الكلب الإسبانيّ!

أراه هناك يبصق على لحية أخي،
ويشفع ذلك بركله بالأرجل ركلاً.
أذني تسمع: هناك المرأة المسكينة تبكي،
إنها تشتهي أكل الدجاج المصلي أيام الجمعة،
لذا أقدموا على صليها، إكراما للإله.
واستندت إلى العمود المجاور لها فتاة حسناء،
افتتنت بها شعلات اللظى وبرحت تغازلها
وتلعقها في شبق بألسن فاقعة الاحمرار؛
إنها تتخبط وحمرة الخجل تكسوها، وتمتنع
في عفة عن العشاق المتوهجين، وتزيد في البكاء.
يا لهفاه! من مقلتيها الجميلتين تنهمر
لآلئ صافية فتلتهمها النيران الشرهة.
لكن ما شأني وكلّ هؤلاء الناس؟
فؤادي مطعون على آخره ومثقوب كالغربال،
ولا متسع فيه لمزيد من وخز الآلام.
الرّجل المخضّب بالدّم على خشبة التعذيب
لا يتبقى لديه من إحساس للدغ النحلة.
صدقني، مازلت أنا المنصور، وما انفك صدري
مفتوحاً مضيافاً لتقبّل أوجاع الغير؛

لكن عبر المنافذ الصغيرة، عبر العين
والأذن، نفذت إلى الصّدر آلام جبّارة،
فأترع الصّدر ـ

(بصوت خافت ومرتعد)

ومن ضيوفه المصابين بأذى من تسلق
إلى الدّماغ رأسا.

حسن:

انهض ! هيّا انهض ! وإلا أنبأتك بما يزعزع كيانك
ويجعل النار تسري في عروقك من جديد ـ

(ينحني نحوه)

سليمة تنام الليلة في أحضان إسباني.

المنصور: (يهب واقفاً ويتلوى في تشنج)

الشمس هوت على رأسي،
وانفلق دماغي واستفاق من اعتش فيه من
الضيوف مترنحا وجعلت تطوف بي
كالخفافيش، وتطنّ وتقزقز حولي وتلفني
في ضبابة من عبق خواطر مسمومة !

(يضغط على رأسه)

ويح قلبي ! ويح قلبي ! العجوز تمسكني،

تستأصل رأسي من الجذع وتقذف به

إلى قاعة حفل زفاف، حيث كلب إسباني

يقبّل حبّي العذب وهو ينبح بسلاسة،

ويلعقها قبلاً ويداعبها ـ ويح قلبي ! ساعدني !

(يرتمي تحت قدمي الحسن)

أرجوك ساعد الرأس المقطوع الدّامي،

عديم السوّاعد لزعق روح الكلب ـ

أعرني ساعدك يا حسن ! يا حسن، بالله عليك !

حسن:

نعم يا المنصور، سأعيرك ساعدي

وسواعد رفاقي القديرة في نفس الحين.

سنزهق روح ذلك الكلب الإسباني

الذي اغتصب منك ملك يدك.

هيا انهض، ستستعيد سليمة عن قريب.

(ينهض المنصور)

لقد نصحت البارحة وأنا أصغي إلى مناجاتكما

بالفرار العاجل، لكن سدى؛ ومهما كان

فلا ينبغي أن ينتهي المنصور إلى اليأس،

هكذا فكرت، وأوعزت إلى رفاقي بالمجيء؛

إنهم بالمرصاد رهن إشارة مني لكي ننقضّ
على قصر علي، كزوّار بدون دعوة.
عليك إذن أن تحمل عروسك وتأتي بها
إلى سفينتنا الرّاسية على ساحل البحر.
ولا ريب أن حبّ سليمة سيعود.

المنصور:

أه، أه، أه ! حبّ ! حبّ ! يالها من لفظة آسنة،
تفوّه بها ذات يوم ملاك وهو يتثاءب
وقد غلب عليه النعاس. وتثاءب ثانية
فقام عالم كله من المعتوهين، شيوخ
وشباب، يكرّر متثائبا: حبّ ! حبّ !
كلا ! كلا ! لست الآن ذلك النسيم الرقيق
الذي يداعب في رفق خدّ صبية؛
أنا ريح الشمال التي تعبث بجدائل شعر
العروس المذعورة وتجرّها جرّا في زمهرير.
لم أعد ما كنت أريج بخور طيّب النفح،
يدغدغ شمّ صبيّة عذراء بمنتهى اللطف؛
أنا الآن اللفح السامّ الذي يخدّرها ويفقدها الوعي
ليتغلغل ماجنا عابثا في سائر حواسّها.

لم أعد ذلك الحمل الورع الوديع
الذي يلتثم مستعطفا بقدمي راعيته؛
أنا الآن النمر الذي يطبق عليها مخالبه متوحّشاً،
ويمزق جسدها بين زئير الشهوة واللذة.
جسد سليمة هو الذي أبتغيه الآن؛
أريد أن أكون حيواناً هنيئاً، أجل، حيوان؛
وفي نشوتي وسكرة الأحاسيس
أريد أن أنسى أن هناك سماء وآخرة.

(يقبض بسرعة على يد الحسن)

سأبقى معك يا حسن ! دعنا نركب البحر
المائج ونشيّد في عرضه مملكة هزلية.
سنرغم الإسباني المتكبر على دفع الجزية؛
سننهب سواحله ونسطو على سفنه؛
سأقف على سطح السفينة إلى جنبك؛
سيشقّ حسامي الجماجم الإسبانية المتعاظمة
إلى شطرين. إلى اليمّ بالكلاب ! السّفينة لنا !
وأسرع عندئذ لأروّح عن خاطري،
إلى القمرة حيث تربض سليمة،
واحتضنها بذراعيّ الملطختين بالدّماء، وألعق

البقاع الحمر عن صدرها الأبيض في نهم -
ماذا ! مازلت تعارضين وتمانعين؟
هيا اركعي تحت قدميّ أيتها الجارية، تذللي
أيّها الشيء التافه الحقير، حسبك أنك
تثلجي أحاسيسي بعد وهج المعركة -
يا جارية ! أطيعي أيتها الجارية وبرّدي لظاي !

(الاثنان ينصرفان على عجل)

قاعة في قصر علي. فرسان وسيّدات في زينة احتفال يجلسون حول مائدة طعام فاخرة. علي. دون انريكه. سليمة. قسّ. عازفون. خدم لتقديم الطعام والشراب.

فارس: (يقف رافعاً قدح شراب)

اسم جميل الوقع يرنّ في صدري:

عاشت إزابيلا ملكة قشتيلية !

(يشرب)

جمع من الضيوف:

عاشت إزابيلا ملكة قشتيلية !

(قرع أقداح وموسيقى «توش»)

القسّ:

دعوني أضيف لكم اسما: خيمناس،

رئيس أساقفة طليطلة، ليعش مديداً !

(يشرب)

جمع من الضيوف:

عاش رئيس أساقفة طليطلة !

(قرع أقداح وموسيقى «توش»)

فارس آخر:

ولا يجب أن ننسى أحسن الأسماء:

لنشرب على نخب العريسين النبيلين !

(يشرب)

الجميع:

عاشت دونيا كلارا، عاش انريكه !

(قرع أقداح وموسيقى «توش». سليمه وانريكه ينحنيان)

دون انريكه:

أشكركم.

فارس ثان:

عروسكم لا تتكلم.

دون انريكه:

صحيح أن كلارا الجميلة قليلة الكلام،

بيد أن اليوم لا حاجة إلا لكلمة واحدة،

كلمة الإيجاب عند مذبح الكنيسة، وسأكون سعيداً.

سليمة:

أشعر بانقباض شديد في صدري، سيّدي.

فارس ثالث:

لقد كان نذير سوء، يا انريكه،

أن انقلبت حاوية الملح قبل حين.

فارس رابع:

وكان أسوء لو أنك قلبت القدح بخمره.

فارس ثالث:

دون كارلوس شرّيب سكير.

فارس رابع:

نعم، والحمد لله، فهو ليس محظوظاً كدراً

على غراركم، تخال له أشهى المآدب ملحة

إن قلب أحدهم عفوا حاوية الملح.

بلى، بلى، الخمرة هي عنصري!

في لجتها الذهبية الوضاحة، المثيرة للعشق،

أريد أن أغمس مهجتي السّقيمة إلى أن تشفي.

ولا أتمالك من الضحك كلما خطر ببالي

كيف أن نبيّ مكة الزاهد عن الشرب.

نعم سيدي، نعم، الخمرة، نعم، أقصد

أن الخمر طيّب .

علي :

بدريللو ! اسمع يا بدريللو !

بدريللو :

نعم سيّدي؟

علي :

ايت بالمهرّجين جميعهم، وكافة البهلوانيّين،

والمشعوذين وكذلك عازف الجنك، واللاعبين

السوقة أصيلي برشلونة .

بدريللو :

فهمت سيّدي ! أمرك سيّدي !

(ينصرف)

فارس خامس : (في حديث مع سيدة)

محال أن أقدم على الزواج، سيّدتي .

السيّدة :

إنك تمزح، إنك زاهي البال يا دون انطونيو؛

أنت حبيب السّيدات، وحبيب العشق .

فارس خامس :

لا شكّ إني أهوى الرّيحانة، وأمتع

نظري باخضرار أوراقها النضرة،

وأنعش قلبي بشذاها العبق؛

لكن حاشى أن أطبخ الرّيحانة

وأتذوقها خضرة في المرق ـ مرّ،

سيدتي، مرّ يكون طعم هذا الطبق.

القسّ: (في حديث مع جليسه)

يا لها من محرقة عقائدية رائعة؛

مشهد كهذا مما ينعش قلب نصرانيّ تقي،

ويرعب قلوب الآثمين المعتصمين في الجبال ـ

(متوجّها إلى علي)

هل بلغك نبأ انتصار رجالنا،

وهزيمة المشركين الشنعاء؟

لقد تشرّدوا، وهاهم يهيمون في هذه

الأحواز، غير بعيد من هذا المكان.

علي (متطلعا إلى الباب):

الحمد للربّ!

لقد سمعت بذلك، أيّها السّيد الجليل.

لكن دعنا الآن نستمتع بعروض البهلوانيين.

(مهرجون، وبهلوانيون ومشعوذون وعازف جنك يدخلون)

«بالي بورلاسك»

عازف الجنك (ينشد):

في ساحة قصر الحمراء،
اثنا عشر ليثا من الرخام؛
وعلى الليوث حوض ماء
من أبيض المرمر الخالص.

في الحوض ورود تسبح،
ورود في أزهى الألوان؛
انه دم أنبل الفرسان الذين
سطع نجمهم في غرناطة.

علي:

إنها أغنية حزينة. تثير الكآبة.
أسمعنا أغنية أعراس مرحة بهيجة !

عازف الجنك (ينشد):

يحكى عن فارس كئيب دائم الصّمت،
ذي وجنتين غارقتين شاحبتي البياض؛
تراه يهيم مترنحاً مرتعداً في تيه،
شارد الذهن في أحلام غامضة.
كان أخرق، أبله مضطرب الحركة،
يثير ضحك الزهيرات وهزء الصّبايا
كلما مرّ عليهن متعثراً مرتاباً.

طالما كان يقبع في ركن البيت
محتجباً عن الناس مستنكفا الظهور.
فكان يمدّ ذراعيه في شوق وحنين،
وما كان ينبس بمجرد لفظة.
وعندما يحين منتصف الليل،
يعلو غناء عجيب ورنين آلات.
ثم يسمع طرق جليّ على الباب.

وإذا بفتاة غرامه تدلف متسللة
في حفيف ثوبها من زبد الأمواج.
إنها تشع وتسطع كوردة يانعة،

حجاب عليها من بديع الحلي والألماس.
خصلات ذهبية تحف ميادة بقامتها الممشوقة،
والمقلتان تحيّيان بفتنة وثبات -
ويرتمي الاثنان في أحضان بعضهما البعض.

بعنفوان الغرام الدافق يعانقها الفارس،
كان هو الأخرق وإذا به شعلة نار تتقد؛
الشاحب يحمرّ وجهه والحالم يستفيق،
والأبله يتحرّر ويزيد انعتاقاً.
بينما انبرت هي تداعبه لعوبة،
وتغشي رأسه في ستر وسكون،
بالحجاب الأبيض من الماس.

وفجأة صار الفارس بفعل سحر
في كنف قصر مائي من أنفس الزجاج.
واشتد به الذهول وكاد يذهب بصره،
من فيض البريق وما شعّ من الوميض.
وأحكمت عروس البحر عناقه في ألفة،
فكان لها الفارس عريساً وهي له العروس،

بينما لعبت جواريها العذارى بالمزاهر.
عزفن وغنّين، وانضمّ إليهنّ حشد غفير
من صغار الفتية والفتيات يرقصون.
وسعد الفارس وكاد يموت من الفرح،
ولم يدع يضمّ الحبيبة أكثر فأكثر ـ

بدريللو يدخل فزعا

بدريللو:

يا الله، النجدة ! يا عيسى ومريم ويوسف !
إننا في هلاك ! لقد أتوا لقد أقبلوا !

الجميع:

من أتى؟

بدريللو:

انهم جماعتنا !

الجميع:

كيف؟ جماعتنا؟

بدريللو:

لا، ليس جماعتنا. إنهم الكفرة الملعونون،

الثوار الفاسقون المعتصمون بالجبال،

لقد تسللوا خفية حتى بلغوا هذا المكان ـ

إننا في هلاك، إنهم على الأبواب، أسمعتم؟

(قرقعة سلاح. أصوات متقطعة تهتف: غرناطة ! الله ! محمّد !)

بعض الفرسان:

على الرّحب والسّعة، فليأتوا !

فرسان آخرون:

هيا نرفع سلاحنا !

(السّيدات يبدين علامات الفزع. سليمة تهوى مغمى عليها. صخب وضجيج في القاعة)

علي:

لا خشية عليكنّ أيتها السّيدات الحسناوات.

المسلم كيّس الطباع وحتى في حالة الغضب

فإنه يعامل السّيدات معاملة الفارس الشهم.

أما نحن الرجال فسنتصدّى لهم ببسالة.

كل الفرسان: (وهم يستلون سيوفهم من أغمادها)

لنقاتل ذوداً عن الأرواح والشرف !

(قرقعة سلاح. خليط من الأصوات المتقاطعة. المسلمون يقتحمون المكان؛ في الطليعة الحسن والمنصور. يشقّ هذا الأخير طريقه في اتجاه سليمة المغمى عليها. صراع)

مشهد غابة. يسمع قرع سلاح في الجوار وصياح معركة. يقبل بدريللو بسرعة مرتعباً وهو يخبط بكلتي يديه.

بدريللو:

الويل ! الويل ! تنغص العرس الجميل !

الويل ! الويل ! الأزياء الحريرية الجميلة،

إنها ستمزق وتغدو خرقاً إرباً،

ملوثة بالدّم فوق ذلك، فعوضا عن الخمر

ستسيل الآن الدّماء. أنا لم أترك المكان جبنا،

أبداً، بل فقط حتى لا أكون عرضة في طريق أحد.

لا شك أنهم سيحسمون الأمر دون مساعدتي.

هاهم الأعداء يتقهقرون خارج القاعة.

انظر ! المعركة تدور حالياً أمام القصر.

انظر هناك ! ويلي ! انه يطعن بحسم ونشاط !

إني لا أشتهي قط أن يجول ذلك الحديد
المعقوف بتلك الخفة على صفحة وجهي.
هاهو أحدهم يجدع أنفه بطعنة،
وفارسنا البطين المسكين صانشو
يشق له البطن المثقل بالدّهن والشحم.
وانظر هناك ! من ذلك الفارس الأحمر يا ترى؟
غريب ! انه يتأزر معطفا إسبانيا وينتمي
مع ذلك إلى صفّ المسلمين. يا الله ! يا يسوع !
(ينتحب)
مسكينة سيدتنا اللطيفة سليمة !
إنها ملقاة على كتف الفارس الأحمر،
وهو يمسكها محكما بذراعه الأيسر،
بينما عكفت يمناه على تشغيل السّيف
والطعن به طعن الجنون - إنه يصاب بجرح -
هاهو ينهار - كلا ! إنه فقط يترنح.
هاهو يستقيم، يواصل الصّراع - إنه يفرّ -
ويلي ! إلى أين أنسحب؟ هنا أيضاً يجب
ألاّ أكون عثرة لأحد في الطريق.
(ينسحب مسرعا)

يمرّ المنصور منهك القوى مترنحا. يحمل على ساعده سليمة فاقدة الوعي ويجرّ سيفه جراً ويهذي: سليمة ! محمّد ! يظهر مسلمون وأسبان في صراع. المسلمون في تقهقر. يصل حسن وعلي وهما يتبارزان. صراع عنيف يدور بينهما. حسن يصاب بطعنة.

دون انريكه ودياغو وفرسان أسبان يظهرون.

حسن: (يهوى على الأرض)

إيه ! إيه ! الثعبان النصراني لسع وأصاب !
وفي صميم الفؤاد ـ يا الله ! هل أنت تنام؟
كلا ! الله عادل، وما يفعله نعم الصنيع ـ
هل أنك نسيتني؟ لا، العباد فقط
من طبعهم النسيان ـ ينسون ربهم وصديقهم
وأوفى خدم صديقهم ـ قل يا علي،
أما زلت تذكر الحسن، خادم عبد الله؟
عبد الله ـ

علي: (ينفجر سخطاً)

عبد الله هو اسم ذلك النذل الخائن،

الوغد السفاح الجبان، الذي اغتال ولدي،
ابني الغالي المنصور ! عبد الله،
هكذا يدعى المجرم الغادر الحقير.

حسن: (محتضراً)

عبد الله ليس نذلاً ولا وغداً،
عبد الله ليس قاتل المنصور ! المنصور
على قيد الحياة، حيّا يرزق ـ إنه هنا ـ
إنه الفارس الأحمر، الذي اختطف سليمة.
هناك، هناك.

علي:

ابني المنصور على قيد الحياة؟
هو الفارس الأحمر الذي اختطف سليمة؟

حسن:

نعم، نعم ! إنه استحوذ على ما كان له ذات يوم.
أنت تكذب، لم يكن عبد الله مجرماً،
وما كان نذلاً ولا وغداً، ولا نصرانياً ـ
دعني استريح ـ هاهي الحسان كحيلة
الأعين تقبل، الحوريات الجميلات أقبلن.

(مبتسماً ابتسام الهناء)

الغادات الصّباح والشيخ حسن !

(يموت)

علي:

يا إلهي، الحمد لك والشكر ! ابني يعيش !

يا إلهي، إنّ في ذلك آية من رحمتك !

ابني يعيش ! هيّا بنا يا رفاقي، هيّا بنا

نقتفي أثره. إنه غير بعيد من هنا،

وقد استحوذ على العروس غنيمة،

وكنت اخترتها له بنفسي في سالف الأيام.

ينصرف الجميع، ما عدا دون انريكه ودون دياغو اللذين يظلان طويلاً يحدقان أحدهما في الآخر في صمت.

دون انريكه: (يوشك على البكاء)

والآن؟ ماذا نفعل يا دون دياغو؟

دون دياغو: (مقلداً إياه)

والآن؟ ماذا نفعل يا دون انريكه دال بونتو دال سهورّو؟

دون انريكه:

ماذا يجب الآن أن نفعل؟

دون دياغو:

نحن الاثنين؟ لا يا سيّدي، نحن الآن طالقان.

الحظ ليس حليفك. كلفني ذلك مائتي ريال.
ضاع المال وذهب العناء هباء.

(يضحك ضحك الغيظ)

منذ شبابي الباكر وأنا أكدّ ما في وسعي بالحيل
والمكائد، وأتدبّر الأمور بما يشيب له الرأس؛
أتسلل عبر المسالك الملتوية في الغابات
حتى تخزني الأشواك وتمزق ثيابي،
وأروغ عبر الصّخور الناتئة وأقفز
من ذروة إلى ذروة، ولو أخطأت القفز
مرّة، لوقع رأسي فريسة سائغة للغربان.
ومع كل هذا بقيت فقيراً فارغ اليد!
في حين صار صديقي في المدرسة،
الغبي البليد الذي ثابر على الخط المستقيم
وداوم بلا كلفة على السّير القويم، قد أصبح
ومازال رجلاً وجيهاً، وبديناً وثريّاً.
لا يا سيدي، لقد تعبت ومللت؛ الوداع!

(ينصرف)

دون انريكه: (يمكث زمناً غارقاً في التفكير)
أترى دون غونزالفو يستجيب لو اقترضته بعض المال؟

(ينصرف)

منطقة صخريّة. المنصور، منهكًا دامياً وحاملاً سليمة المغمى عليها يتسلق أعلى الصّخور.

المنصور:

عونك يا الله ! لقد تعبت واستنفدت قواي؛
لكنني استرجعت رويمي[1] الأبيض
وقد أوشكت يد الصيّاد أن تجهز عليه بسكين.
(يجلس على قمة الصخرة واضعا سليمة على حجره)
أنا المجنون المسكين، أجلس الآن
على صخرتي وألعب مع ريمي،
إذ إلى ريم تحولت ليلى، وجعلت
ترمقني بعينين صافيتين ناعمتين.

(١) هكذا رأينا أن نترجم mein Rehlein والرويم مصغر الريم وهو «الضبي الخالص البياض». وجاء على لسان حازم القرطاجني الأندلسي:

لهفي لذكرى معهد عهدته	يراح للأنس به ويغتدى
غص امتلاء بالرويم بعدما	أقفر من أم الرويم وخلا

عيناها مغمضتان الآن، ريمي الصغير ينام.
سكوناً، سكوناً أيها الحسّون، كفاك تغريداً.
وأنت أيها الخنفس خفض من أزيزك.
ويا نسيمة اكبتي حفيف الأوراق. سكوناً !
دعني أترنم لك بأغنية نوم. سكوناً !
(يهدهد سليمة وينشد)

الشمس ترتدي قميص النوم،
لونه أحمر متورّد بديع؛
العصافير تكفّ عن التغريد،
وترنو إلى فراش النوم.
نم يا ظبيي الصغير، نم كذلك.

رويمي ينام، ما أجمل ذلك؛ لكن نومه يطول.
العينان الحالمتان النقيتان في صفاء الحبّ،
أنهما مغمضتان، محكمتا الإطباق -
ولكن هل ستظلان هكذا؟ هل أن ريمي مات؟
(يجهش بالبكاء)
ماتت ! لقد مات ريمي الأبيض الناعم !

نجمتاه الفاتنتان أفلتا وصارتا من الأموات !
يا ريمي الميت ! سأطرحك بلطف على مضجع
من الورود والياس والبنفسج والعيسلان.
من ضياء القمر الذهبي سأنسج لك غطاء
أسدله عليك. وينشد لك أبو الحناء مرثية،
ويقوم اثنا عشرة جعل ذهبيّ بحراسة
مطرحك المزهر في النهار، وفي الليل
اثنتا عشرة دودة لماعة تغمرك بوميض
ضيائها، بديلاً عن نور الشموع.
أما أنا فسألازم جنبك باكياً ليل نهار.

(تستفيق سليمة من غيبوبتها)

ماذا أرى؟ الأطراف الرقيقة تتحرّك بهدوء،
رويداً رويداً ينزاح السّتار الحريريّ عن
العينين الفاتنتين ! ما هذه بريمة، ولا هي ليلى !
إنها سليمة، ابنة عليّ الجميلة.

(تفتح سليمة عينيها)

السّماء تنفتح، الجنة تفتح أبوابها !

سليمة:

أأنا الآن في الآخرة؟

المنصور:

من موت وجمود أفقت.

سليمة:

أعرف أني متّ وها أنا الآن في الآخرة.

(تدقق حواليها)

ما أجمل هذا المكان، ما ألطف النسيم وأنقاه،

كل ما هناك يرتدي ثوباً في لون الورد.

المنصور:

أجل، نحن الآن في السّماء يا حبّي العذب،

أرأيت الأزاهير في الأسفل تلهو وتمرح،

والفراشات تهفو وترفرف حواليها،

وتذري مازحة في أعين الأزهار المسكينة

رذاذا من الماس زاهي الألوان؟

أتسمع خرير مياه الجدول هناك تحت،

واليعاسيب سماويّة اللون فوقه تطنّ،

وعرائس الماء ذات الخصال الخضراء تسبح

وتغوص في الأمواج الذهبية المحمّرة؟

أترين الأشكال الضبابية البيضاء تتهادى كالحجيج؟

إنها أفواج الأبرار الخالدين أبداً في ريعان الشباب،

الناعمين على الدّوام في رياض الرّبيع الذي لا ينتهي.

سليمة:

قل لي يا المنصور، إن كانت هذه منازل

الأبرار الصّالحين، فكيف وصولك أنت هنا؟

لقد قال لي قسّنا الورع بكلّ تأكيد،

أنه لا يسعد وينعم بالخلود سوى النصرانيّ.

المنصور:

لا تشكيّ في سعادتي يا حبيبة قلبي!

إني أحتضنك وأضمك إليّ يا حبيّ،

وفي ذلك سعادة المنصور مضاعفة مراراً.

سليمة:

لقد كذب الرّجل التقيّ إذن. لقد قال لي أيضا

أنه من واجبي أن أحبّ دون انريكه النبيل.

واستجبت قدر المستطاع. وسعيت أن أنسى

المنصور. ولم يكن ذلك سهلاً عليّ.

وشكوت خطبي إلى أمّ الربّ. ابتسمت لي

بلطف ورحمة وكرم، ودثرتني بلحافها

وحملتني إلى هنا، حيث العلاء النيّر الوضاح.

ورنت الموسيقى في طريقي؛ ملائكة صغار

نفخت في الأبواق والمزامير ورتلت
أناشيد عذبة ـ يا لها من لذة عذبة !
هاأنا في السّماء، وأجمل ما هناك
أن المنصور بجانبي؛ ولا داعي
في السّماء إلى المداهنة والتلفيق،
وبوسعي أن أبوح صراحة: إني أحبّك،
إني أحبّك، إني أحبّك يا المنصور !
(وميض الغسق يحيط الاثنين بهالة من النور)

المنصور:

أعرف من زمان أنك مازلت تحبينني،
بما يفوق حبّك لنفسك. البلبل أودعني السرّ
والوردة أسرّت إليّ به بعبقها، وحملته نسيمة
إلى مسمعي، وفي كلّ مساء قرأته بجلاء في
الكتاب الأزرق المخطوط بأحرف الذهب.

سليمة:

لا ! أبدا ! لم يكذب الرّجل الورع ولم يسفه،
ما أبهى الوجود في مملكة السّماء البهيّة !
ضمّني بذراعيك الرفيقتين يا المنصور،
وهزهزني في حجرك الناعم العطوف،

ولأبق هكذا آلاف السّنين في نشوتي

وثملي في هذه السّماء، في سماء الخلود !

المنصور:

نحن في سماء الخلود، حيث الملائكة

تنشد وتهفهف بأجنحتها الحريرية .

هنا يسكن الله في كنف حفرتي هذين الخدين .

(تسمع قرقعة سلاح في البعد. المنصور ينذعر)

لكن هناك في الأسفل يقطن إبليس،

صوته يجلجل رهيباً متعالياً إلى السّماء،

ويمدّ قبضته الحديدية في اتجاهي.

سليمة: (فزعة)

ماذا بك تنذعر فجأة؟ لماذا ترتعد؟

المنصور:

سمّيه إبليس، سمّيه الشيطان، سمّيه البشر،

هذه القوة الغاشمة الشرّيرة الصّاعدة بتجبّر وعناد

لتلاحقني في سمائي .

سليمة:

هيا بنا نهرب إلى أسفل

في الوادي الخصيب، حيث الزهور تلعب

والفراش يهفهف، والجدول يترقرق،

واليعاسيب تطنّ، والبلابل تغرّد

وأشكال ضبابية بيضاء تتهادى كالحجيج .

خذني إلى تحت، سأظل على صدرك أبداً.

(تلتصق به)

المنصور: (يثب قائما ويضمّ إليه سليمة بساعده)

إلى تحت ! إلى تحت ! الزهور تشير إلينا مفزوعة،

البلبل يناديني بصوت يشوبه الارتباك،

أطياف الأبرار تمدّ نحوي الأذرع الضبابية،

أذرع عملاقة تجذبني إلى تحت،

إلى تحت .

(مسلمون هاربون يمرون)

لقد اقترب الصّيادون،

يريدون ذبح ضبيي ! هناك يقرقع الموت،

وهنا تحت تباشير حياة زاهرة،

وهاأنا امسك سمائي بين ذراعي.

(يلقى بنفسه ومعه سليمة إلى أسفل الصّخرة)

فرسان أسبان يقتفون أثر المسلمين يشاهدون الاثنين يهويان فيرتدّون مذعورين إلى الوراء. يسمع صوت علي:

فتشوا عنه، فتشوا عنه، لا بدّ أن يكون في الجوار !

(علي يظهر)

جمع من الفرسان:

فظيع !

علي:

هل وجدتموهما؟

فارس (يشير إلى خلف الصّخرة):

نعم، وجدناهما، لكن المجنون ألقى
بنفسه إلى أسفل جاراً معه حمله الغالي.

(استراحة)

علي:

الآن يا يسوع المسيح أحتاج إلى كلمتك،
وإلى مواساتك الرّحيمة، وإلى مثالك.
أنا عاجز على إدراك مشيئة القدر،
لكن حدساً يقول لي: ستقلع الزنبقة
والرّيحانة من الطريق التي ستسير عليها
عربة نصر الربّ الذهبية في عظمة وجلال.

لمحة عن المؤلف

ولد **هاينريش هاينه** في سنة ١٧٩٧ بمدينة دوسلدورف في ألمانيا. درس الحقوق في عدّة جامعات ألمانية. ومنذ وقت مبكر كتب **هاينه** الشعر والمسرحية وإهتم بشكل خاص بالقضايا السياسية والاجتماعية، الأمر الذي اضطره إلى الهجرة من ألمانيا والإقامة بفرنسا حتى وفاته سنة ١٨٥٦. ولكنه رغم هذا الالتزام ظلّ بالأساس شاعراً نابغاً رقيقاً واظب على صوغ الأبيات ونظم القصائد الرائعة التي نُشرت أثناء حياته وبعد وفاته. ويُعتبر **هاينه** اليوم واحداً من الشعراء الكبار في اللغة الألمانية.

لمحة عن المترجم

منير **الفندري**، باحث وأستاذ جامعي متخصص في الأدب الألماني، ولد عام ١٩٤٩ في صفاقس بتونس. درس الأدب الألماني في جامعة هايدلبرغ حيث نال شهادة الماجستير ١٩٧٥ وشهادة الدكتوراه عام ١٩٧٨ من جامعة دوسلدورف حول: **هاينريش هاينه والشرق**، ويعتبر هذا البحث حتى اليوم من أهم الأبحاث عن أعمال الشاعر هاينه. منذ عام ١٩٩٣ يمارس **الفندري** التدريس في جامعة تونس ويدير هناك معهد الدراسات الألمانية. اهتم بشكل خاص بأدب الرحالة الألمان إلى تونس ونشر العديد من الترجمات والأبحاث. منحته الهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي عام ٢٠٠٦ جائزة ياكوب وفيلهليم غريم.

هذا الكتاب

إنما هي المقدمة فحسب. هناك حيث تحرق

الكتب، لا بدّ أن يحرق في النهاية البشر









